ادمون صبري

حكايات عن السلاطين



الجزء الثاني

ادمون صبري

حكايات عن السلاطين

الجزء الثاني

١٩٧٣

مطبعة السعدون ـ بغداد

★ كيفما كنتم يول عليكم

★ الناس على دين ملوكهم

★ ويل للمغلوب

★ الظلم ان دام دمر

★ العدل اساس الملك

★ ما اعظم كلمة حق فى حضرة سلطان ظالم

وفى الانجيـــل

اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .
من يأخذ بالسيف ، بالسيف يوءخذ

● ويقول الفردوسى فى الشاهنامه
وما هم الملوك الا ان يلهوا ويحاربوا وفى لهوهم وحربهم هلاك للعباد .

● ويقول حافظ شيرازى
اننى لاابدل عمامتى بالف تاج من تيجان كسرى .

● ويقول المتنبى
الظلم من شيم النفوس فان تجـد ذا عفة فلعلة لايظلم .

رسول السلطان

كان ما يشغل بال سلطان البحر ، وهو يحكم سلطنة تقع فعلا على البحر ،ان زميلا مثله او خصما وهو سلطان البر يحيا فى دعة واطمئنان لايكدر صفو حياته مكدر ولا ينغص عيشه منغص ولا يعبث بأمن روحه عابث ولا يمسى على مشكلة ولا يصبح على مصيبة •

ان فى اصغر الجداول واقلها ماء تنقنق الضفادع ويحرك احشاءها الموج وتهب على سطحها الريح ، الا ان سلطنة البر لا ينقنق فيها ضفدع ولا يحرك احشاءها الموج ولا تهب عليها اضأل السمات • ولله في خلقه شؤون •

أما سلطان البحر فتقض مضجعه المشكلات وتسلب راحة باله المظاهرات والاحتجاجات والاضرابات • فان فرض ضريبة صغيرة على صيادى السمك، هبت فى وجهه عاصفة اشد عنفا من عواصف البحر • خرج عليه الناس يحتجون ويعربدون فيملأون الازقة ضجيجا وجلبة حتى يتراجع عما قرر ويعدل عما يريد • وان منع الحطابين من احتطاب الخشب فى غابات سلطنته الا باتاوة زهيدة، قامت من حوله ضجة تندد بسياسته زاعمة ان للناس حقا فى العيش الكريم وما فى هذا للسلطان سلطان •

والغريب فى الامر ان يلجأ السلطان وهو حامل الصولجان وحامى الثغور والتخوم الى تسوية الامور وفض المنازعات مع افراد من العامة نصبوا انفسهم زعماء وقادة واولى شأن وخطر ، وعلى هذا فلم تتيسر لسلطان البحر الفرصة ليترف ويبذخ ويستأجر المداحين والمعظمين ويشيد القصور والقلاع ويكتنز النوادر والنفائس من الجواهر والرياش •

اعتزم سلطان البحر أكثر من مرة ان يزور زميله أو خصمه سلطان البر ليتعرف على حكمته ودهائه وليقف على أسلوبه وسياسته فى تصريف شؤون

الناس وكيف يتيسر له الجاه والمال وراحة البال والعيش فى الترف والقصور •

لقد شد اليه الرحال فاستقبله سلطان البر بحفاوة بالغة وتكريم عظيـــم ، وانزله فى أعظم قصوره ابهة وفخامة واحاطه بجيش من الخدم يكسو كل واحد منهم جسده بفاخر الثياب مما لا يتيسر لوزير له ان يفوز بمثلها وقد اولم لـــه الولائم ووضع على موائدها الخراف المسمنة والسمك اللذيذ وكل لحم طري من الطير والدجاج حتى ليحتار الطاعمون أي طعام يتناولون ومن اي صحن يبدأون، وما خير هذا او ذاك من الصحاف والقصاع هل هو دسم أو حلاوة أو شيء من هذا وذاك ، وحتى يتمنى الاكلون ان تكون معهم نساؤهم واولادهم يتذوقـون الظريف النادر مما لا يصادفه الانسان فى حياته غير مرة أو مرتين وفى ختـــام الزيارات يخلعون عليه الرتب ويقلدونه النياشين المذهبة ويكسون منكبيه بالاوشحة السلطانية المزركشة بالحرير النادر الموشى بخيوط الذهب الابريزي •

الا أنه مع ذلك لم يستطع ان يميز ظلام الحياة من نورها فى هذه السلطنة الغريبة • كان يرى الناس على مبعدة يروحون ويجيئون صامتين وديعين تغلب المسكنة على ســـيماهم مثل اسرى الحرب في جيوش المرتزقة •

حاول ان يفهم شيئا عن طريق قراءة الصـحف فوجـدها جميعـا تمجـد السلطان وتشيد بحكمه وعقله وتعد الناس بالخير والبركة على يديه الميمونتين •

وحاول ان يدخل فى جدل مبطن مع حاشية الســـلطان أو حراســه وموظفيه فلم يقع على طائل • كانوا يتسابقون ويتبارون فى كيل المديح لسـلطانهم واسباغ ايات الثناء عليه والدعوة له بطول العمر ودوام الســؤدد ، فهو الواهب المتفضّل ذو الرأي السديد والنظر الحديد العزيز المقتدر •

أحتار سلطان البحر والتبس عليه الامر كله ولم يفقه له تعليلا وتحـليلا الا ان يكون سحرا أو كالسحر ، فوطد العزم ان يأتي للمسألة من جانب اخر أو يفتح لها جبهة اخرى كما يقول العسكريون •

استدعى من رعيته رجلا اريباً محنكاً يعمل استاذاً فى المدارس العليـا ،

مثقفا في علوم السياسة والاجتماع والقانون ، عالما بمعائش الناس وطباعهم واحوالهم وهو الى ذلك ذو بيان وعبارة ومنطق ، جلد على الصعاب ، محب للاستطلاع باسل شجاع مقدام شديد المراس والدهاء ، حسن القوام مليح الوجه موفور الصحة اسمه قاصد .

اوصاه ان يرتحل الى سلطنة البر متخفياً متسترا ويقيم فيها ردحاً من الزمن يدرس ويتقصى ويستعلم حتى يجمع من الاخبار والمشاهدات ما يكفي لتحليل الاوضاع المتبعة هناك وعلى أية مساند تستند وكيف تصاغ الاوامر وتنفذ ومن يستفيد منها ومن يتضرر . ولِمَ هناك الحياة هادئة ، مستقرة اعظم ما يكون الهدؤ والاستقرار ولِمَ هي في سلطنته جياشة صاخبة فوارة بدم الحياة .

اوصاه ان يتكتم ولا يكشف حقيقة حاله وان تعرّض للاذى والعذاب والسجن والبلاء عليه ان يبقى اميناً على السر حفيظاً للعهد حتى لحظة تنفيذ حكم الاعدام ان فعل ما يستوجب الاعدام . انذاك يكشف اوراقه ويعلن هويته . وقد زوده سلطان البحر بتوصيات وشفاعات لدى سلطان البر لكي يعفو عنه ويخفف بلاءه ويرده اليه سالماً وهو له من الشاكرين .

تزيا هذا الرسول بزي رجل من العامة يمتهن المهن التافهة التي تعتمد على الكد والكدح ولم يحتقب معهغير قليل من الملابس الرخيصة المتينة القماش وتزود ببعض المال وابريق وصحن ووسادة وغطاء واشياء صغيرة اخرى تعينه على قضاء حاجاته اليومية المنزلية .

دخل السلطنة في ليل بهيم عن طريق التلال المرتفعة التي لا يرتادها أحد لوعورتها وتكدس الثلوج على قممها في اشهر الشتاء . وفي الفجر المعتم المضبّب دخل السلطنة متخفيا وعلى حين غفلة من اهلها كما فعل موسى من قبل ، واخذ يمشي في أزقتها ينظر ويسمع ، وعندما أمسى المساء التمس مفزعاً في خان كبير معد للمقطوعين وابناء السبيل والمعدمين البائسين . نزل في حجرة صغيرة معتمة يعلوها الغبار والرطوبة مشيدة بالاجر السميك الصلب ، واذ كان القدم قد عاث بجدرانها

فسادا وخرابا فقد عششت فيها الحشرات والهوام .

وكان اول مافعله انأقتلع حجارة ضخمة من الارض عند الزاوية المظلمةالتى يرتد اليها الباب عند انفتاحـــه ووضع فى الحفرة الصغيرة المربعـة هويته واوراقه ورسالة سلطانه المعنونة الى سلطان البر ليعفو عنه ويرده الى اهله ثم اعاد الحجارة الى مكانها وسواها تسوية حسنة لا تلفت نظرا ولا تثير شكوكا .

اقام فى هذه الحجرة عدة ايام يتقوت على طعام يتبرع به الموسرون والمرفهون ومن وهبهم الله بسطة فى العيش والرزق . كان الطعام يأتى بأوعية كبيرة تشتمل على الرز والمرق والدولمة والكباب والحلويات والمعجنات فيتناول كل نزيل وجائع من نزلاء الخان واللائذين بجدرانه وساحاته والطارئين عليه فى مواقيت الغذاء ، حاجته بالصحن أو الوعاء أو ما يملك من صفائح ودوارق ثم ينصرف الى حجرته ومأواه فيأكل بشراهة وطقطقة مستخدما اصابعه كلها . كانت تصحب عمليات التوزيع معارك بالايدي وتدافع بالمناكب وتشاجر بالصحون مما يضطر القائمين على الخـان الى التدخل لاستتباب الامن لدى معشر الجائعين ، وفى غمرة تهافتهم وتزاحمهم يتساقط بعض الطعام على الارض فتدوسه الارجل فيتفتت ويتبعثر محدثا بقعا سوداء وسخة تزرى بمنظرها العيون .

علم قاصد انهذا الطعام هو الفدية التى يضحيها اقرباء الميت لاستنزال الرحمة على روحه وليترفق به الرب بغفرانه ورضوانه ويبعد عنه نار جهنم ويســكنه فى فسيح جنانه والرب اعلم وادرى المحيط علما بكل شيء وفوق كل ذى عليم .

ولما كان قاصد فى عهده الاول رجلا منعما ميسور الحال معتادا على تنـاول الخمور للاستئناس والراحة والتماسا لصفاء البال وطمعا فى نوم هنيء ، فقد شرهت نفسه الى كأس يريح بها اعصابه المرهقة وجسده المتعب فينتشى ويأنس .

لقد بحث عن موضع يتناول فيه الناس الخمور فوجدها جميعا تبيع بيـــع الغلاء ويصعب على اغلب الناس تناولها وهى لاتتيسر الا لمن اتاه الله رزقه وفيرا

أو قتر على اهله وولده أو طغى واستلب مال غيره • ان قيمة ما تكلف الخمرة شاربها هى اجرة عامل يحرث الارض أو يقلع الحجارة من الجبل او ينزح الماء من البئر أو يذيب الحديد وهذا أمر غريب يدل على عظم تفاوت حظوظ الناس • وبعد شيء من التفكير وهو الاريب المبتدع • اهتدى الى ان يصنع الخمر بنفسه وذلك من بقايا التمر الذى تجمع لديه من صدقات المتصدقين • هرس التمر فى وعاء مستطيل العنق واحكم اغلاقه بالطين اللزج وجعل له فوهة صغيرة ثم سلط عليه النار من تحته • وبعد ساعات تدفق سائل اخضر عكر من الفوهة ، استقطره قاصد فى علبة صغيرة ، وما أن أمتلاءت هذه العلبة وبرد ما فيها ، حتى أخذ يشرب فى تمهل وتلذذ فشعر بدبيب الانتشاء يصعد الى رأسه وبعد دقائق انزاح الباب قليلا واطل منه رأس رجل من نزلاء الخان ، لم يتعرف عليه قاصد من قبل ، الا أنه التقاه عند الحنفية العامة يغسل وجهه وقدميه ، أو يقضى حاجته فى اروقة الخان • سأل هذا الزائر غير المنتظر عن معنى هذاالوعاء والشيء الذى يشرب منه قاصد ، فافهمه حقيقة الحال فى نبرة صداقية كريمة ودعاه ليشرب فهو لايعدو ان يكون شرابا مستساغا حلوا ، فامتثل الرجل وتجرع منه رشفتين اثنتين ثم رد الوعاء الى مكانه متشكرا ومضى لسبيله • وما أن انصرمت عشر من الدقائق حتى اندفع الباب بعنف وحشى وأمتلاءت الحجرة باربعة أجساد متينة عريضة امتدت ايديها الثمانى من غير تلطف ولا كياسة الى جمع الوعاء والاناء والطاس والابريق وموقد النار ، وأستاقوا قاصدا فى ذلة وانكسار ومهانة يشتمونه ويلعنونه سألهم (ما بالكم ايها الاخوان ؟) لطمه احدهم على رأسه ولكزه الاخر فى خاصرته وشد وثاقه الاثنان الاخران ، وسمعهم يقولون فى استخفاف •

— كأنك لاتدرى ان هذه جريمة يعاقب عليها القانون •

هتف قاصد فى فزع

— جريمة اية جريمة انا لم افعل شيئا ضارا بأحد ، اجابه الرجال الاربعة •

ـــ ضار بالنظام كله • انك تسرق اموال السلطنة وتتهــــرب من دفـــع الضــــريبة •

هتف قاصد مرة اخرى وهو مندهش •

ـــ اية ضريبة انا لم اسرق من احد شيئا •

ـــ سرقت أموال السلطنة بصنعك الخمر فى بيتك بدلا من أن تشتريه مـــن السوق وتدفع الضريبة التى نص عليها النظام الذى وضعه سلطاننا العظيم الكريم •

تساءل قاصد فى وليجة نفسه • أهذه جريمة ان أصنع الخمر بـين جـــدران حجرتى المغلقة الصامتة واتناوله وحدى ••• ثم من بلغ هوءلاء ؟ ومن أدراهم بما كنت افعل ؟

لبث قاصد فى محبس صغير يكتظ بشتى النفايات البشرية المسحوقة لعـدة أيـــام ثم أقتيـــد الـى القاضـــى وقـد تمزقت ملابسه من الشد والجذب وتشعث شعره وفقد الكثير من لياقة جسده ، بل وفقد البعض من ادميتـــــه وكرامتـــــه •

وجد على منصة القاضى اشياءه الجرمية جميعا كما يدعوها القانون • بادره القاضى بنبرة باردة ساخرة •

ـــ لقد أفسدت نظام السلطنة وفعلت فعلا محرما • الا تدرى ان عملك غـــير مشروع وهو ان تصنع الخمر سرا وتكسب به مالا حراما •

احتج قاصد فى حرارة •

ـــ ايها القاضى العادل ، اننى لم اتاجر بالخمر ، انما لدى حفنة من تمر فاسد صنعته خمرا بدلا من أن أتناوله تمرا •

ـــ الخمر تباع علنا ، اشتر حاجتك واشرب •

ـــ يا حضرة القاضى •

امـــره أن يصـــمت وشـــعر بيـد ثقيـــلة تلطم كتفه من الخلف

امارة على أن المتهم قد أنتهى من قول دفاعه وليس ثمة مجال لمزيد من الكلام.

الا أن قاصد انفجر يشكو حاله .

— ياسيدى القاضى الخمور باهظة الثمن وانا رجل فقير .

نهره القاضى .

— ان كنت فقيرا فاقلع عن شرب الخمر . ليس فى الدنيا قانون يرغم الناس على تناول الخمر . تلك مزية الموسرين والمنعمين فن لم تكن واحـــدا منهم فلا شأن لك بالخمر . والقانون بالمرصاد للمحتالــــين الماكريــــن العابثين .

ولمـــا كان قاصد مقبلا من سلطنة يجوز فيها الكلام والمحاججة فقــــد أخذ يتمتم فى غيظ «انا لم افعل شيئاً يستوجب العقاب ، انا بريء لم أسلب مالا من احد ، ولم أتدخل فى شؤون احد ، ولم أتاجر ببضاعة محرمة ، ولم أرتكب اثما .

هذه التمتمة الاحتجاجية لم تجـــده نفعا ، فالقانون هو القانون لا يتلـوى ولا يتعوج ، انما ينزل على الاعناق نزول السيف الصارم فيقطع ويبتر ويجـرح ويميت .

حكم على قاصد بالسجن لمدة سنة واحدة وصودرت أنيته ووعاؤه وابريقه ولم يسمح له بالعودة الى حجرته ، ولم يدر ما حل بفراشه ووسادته واشـيائه الاخرى .

أدخلوه سجنا مترامى الاطراف ، يكاد يكون مدينة اخرى ، قد حشرت فيه الانفس حشرا ، فرغم ان الساحات العامة المكشوفة كبيرة جدا الا ان ردهـات المساجين صغيرة ومكتظة وباعثة على الضيق وانحصار القلب .

كان السجن عالما آخر يختلف عن المدينة بقدر اختلاف الحديقة عن الغابة عالم السراق والمحتالين والقتلة والمنبوذين وما تقذفه الحياة فى سلة المهمـــلات من النفايات البشرية الهالكة المسحوقة ، عالم خلفى تحجبــه عن الحيـاة العامة أسوار شاهقة وقلاع رهيبة واسلحة مدمرة وابواب سميكة من اغلظ اصـــناف

الحديد • وفى السجن كذلك قلة من المثقفين الطيبين تجار واساتذة واربـساب أعمال حكمت عليهم الظروف من حيث يريدون او لا يريدون ان يدخلوا السجن ولم يستطع السجن ولا أهله ان يلوثوا نفوسهم الطيبة الكريمة بل كان القائمون على السجن ينظرون الى هوءلاء نظرة أحترام وتقدير •

والحديث عن السجون حديث طويل وذو شجون فقد تحدث عنهـــا ديستويفسكى العظيم فى كتابه ـ بيت الموتى ـ حديثا ليس امتع منه ولا أعظـم وكذلك فعل فكتور هيجو فى كتابه ـ آخر ايام المحكوم عليه بالاعدام ـ ووصف الزنزانة الرهيبة التى يحشر فيها المحكوم بالاعدام قبل ان يساق الى المقصـلة وكيف يأخذه الجلادون من محبسه الى الطريق العام حيث تنتصب المقصلة وفى العراق كتب عن السجن أستاذ فاضل هو جعفر الخليلى فى كتابه « كنت معهم فى السجن » فيه وصف دقيق شائق لسلوك المساجين وطباعهم وكيف ارتكبـوا جرائمهم ، احيانا عن قصد واحيانا عن مصادفة وفى احيان اخرى للتسلية والظرافة والنكتة •

اما قاصد فرغم ما ألم به من مصائب ومتاعب فقد راح يستطلع بأنتباه وتبصر كافةالاوضاع المحيطة به، ولم يجروء انيدونها فى كراس خشية ان تثير الاشتباهفى أمرهوتؤول الامور الىالخراب والضياعوخلالابحاثهوتقصيه للكبائروالصغائر من الامور انتهى الى الاستيثاق من ان معظم المساجين وتقريبا جميعهم لايملكون ثروةولا وظيفة رسمية ولا تجارة نافعة ، لاينتسبون الى أسر ثرية متنفذة معروفة ، أنما هم صفوة الدهماء او بشر الارض الرخيص •

أمضى فى هذا السجن سنة واحدة لم يزره قط أحد بطبيعة الحال ، ولم يعقد صداقة وطيدة مع أحد انما لاطف الجميع واحبهم كرفاق وزملاء واسـدى اليهم المعونة وحرر اليهم الرسائل والعرائض وعلم بعضهم القـراءة والكتابة ، وارشد المرضى والمتوجعين الى مواطن دائهم • وكان يستشار فى كثير من الامور منها القانونية والقضائية والاجتماعية والحسابية ، فيحسن المشورة ويمحض النصح•

كان بعيدا عن الدناءة وسوء التدبير وارتكاب المخالفات ، لذا لم يتعرض في السجن الى أى بلاء حتى أحبه السجانون وسمحوا له بأرتياد المكتبة ومطالعة ما فيها من كتب وان يتولى أمرها فى احيان كثيرة • والظاهرة البارزة فى السجن ان المساجين جميعا يشطبون على ماضيهم وكأنهم لم يولدوا فى بيت ويترعرعوا بين أهل وأقرباء حسبهم السجن بيتهم والمساجين أهلهم وأصدقاءهم كما هو الحال بين الرهبان فى الاديرة •

وكل من فعل ذلك على نحو ابرز واشد كان أكثر سعادة واحفل بالاطمئنان وراحة البال وربما اوفر صحة واكثر عافية •

عندما أنقضت محكوميته خلعوا عن بدنه بدلة السجن الرمادية ذات الميسم الابدى المقرون بالرهبة والضعة وأعادوا اليه بذلته القديمة ، وكانت قد طويت فوق الرف ولم تمسها يد خلال سنة كاملة فوجدها قاصد مترهلة مجعدة مغبرة فلم يبال بما أصابها ، أنما أتخذ سمته الى الخان الذى بات فيه لياليه الاولى •

التمس حجرته فوجدها مشغولة بأمرىء ما • سأله عن فراشه ومتاعه فلم يفز منه بجواب ، فألح فى السؤال والح فى الطلب ، فقيل له فى أخر الامر ان فراشه ومتاعه وما كان يملك غدت من أملاك الرجل الذى بلغ عنه ، فالعادة أن يؤول متاع المجرم الى الرجل الذى يكشف جريمته ، فليس ثمة جدوى من الاستفسار والمطالبة والتشبث بحق ميت ، فعجب قاصد من هذا الاجراء الذى لا يمكن انيعلل ويبرر •

امسى قاصدا مشردا رث الثياب نامى اللحية لايؤويه خان ولا تكية بسبب من أنه من المحكومين وارباب السوابق ، فعاش على الصدقات والشحاذة كأى بائس فقير ، أخذ يطوف ارجاء سلطنة البر داخلا فى احيائها الفقيرة والغنية ، والخربة والعامرة ، المظلمة والمضيئة ، الضيقة والفسيحة ، مطوفا فى المستشفيات والملاعب ودور اللهو والقمار والاندية الليلية ومكاتب المثقفين وأمكنة حجز

المذنبين والمتهمين • كان كل شيء يدل دلالة صارخة على تفاوت حظوظ الناس فى النعمة والخير والرفاه ، وان الطبقات متباعدة عن بعضها البعض فى الانسجام والتوافق والتعاطف • كل طبقة لها عالمها ومفاهيمها ونظم عيشها ، تتزاور فيما بينها وتتصاهر فيما بينها وكلما أرتقت الطبقة فى سلم النعمة والرفاه يكون أفرادها أقل عددا وأكثر التصاقاً وتعاضدا مع الطبقة الحاكمة واحياناً تكون هى الطبقة الحاكمة نفسها أو بعض أفرادها • والغريب جدا أن الذى يحرسون هذه الطبقة ويدفعون عنها الشر والاذى هم من أفراد اوطأ الطبقات أو الطبقة الدنيا المعدمة •

هذا التفاوت فى حظوظ الطبقات مفروض قسرا وبقوة جبروتية غاشمة شبه عمياء لايمكن أن تدركها العقول او تحيط بها الافهام الا لمن اوتى حظاً عظيما من الذكاء والفطنة والقدرة على استشفاف الغامض والمجهول •

لقد تصرمت عقود من الدهر والحال كهذا الحال حتى تعودها الناس وألفوها مثلما يألف الرجل زوجته ان كانت عوراء او عرجاء • أن اعتياد المرء على شيء شاذ وغير طبيعي ولمدة طويلة من الزمن يحسبه فى آخر الامر طبيعيا جدا ولا يمكن أن يكون غيره أو بديله •

ان هم السلطان ومن هم على شاكلته ان يقنعوا الناس ويجعلوهم يؤمنون أن الكائن هو الطبيعي والسوى والجدير بالبقاء وخير ما يمكن ان يكون وسواه باطل محرم

ان أعمدة الحكمة لدى سلطان البر تستند على قاعدتين ليس فى الدنيا أعظم منهما قوة وأغراء وخوفا ورهبة • هما المال والسيف • كل الناس تحب المال ، وتريد أمتلاكه لانه المفتاح لكل النعم والخيرات والمسرات والمباهج • بالمال يشترى الانسان انسانا مثله • وكل الناس تكره الموت وتريد اجتنابه • هذا هو طلسم السلطنة الازلى وشعار الاباطرة والقياصرة وكثير ممن حكموا بالقوة والقهر والطغيان •

أن فصول التاريخ التى تتحدث عن المال والموت هى الفصول الاكثر امتاعا وتفصيلا ، تتحدث عن الذهب والدم وعن النهب والمجازر وتبذير الاموال على ما لاينفع غير أشباع رغبةالسلاطين فى أذلال الناس وترويعهم بالسيف تارة وافسادهم بالمال تارة اخرى وكذلك تفسر مأسوية الانسان وروحه المعذبة الشقية خلال عصور التاريخ .

منذ الخليقة ومنذ عرف الانسان كيف يملك الارض والذهب وكيف يحرمهما على أخيه الانسان كانت سنة الحاكمين فى كل العصور هى ان يبقى المالكون مالكين ويبقى المحرومون محرومين وقد أنتصروا فى معظم المعارك وخسروا فى معارك قليلة نادرة . وهذه المعارك القليلة النادرة هى مشاعل الحرية والالتواءات فى الطريق العام ، ونقاط تأمل ودراسة وهى التى أنتهت بالانسان الى حالته فى هذه الايام .

كان من عادة سلطان البر ان يأمر رجاله الاشداء باختطاف الشحاذين والبائسين من الازقة والدروب كلما وفد عليه ضيف كبير جليل لئلا تقع عيناه على ما يحزنه ويكدر صفو مزاجه ويعلم ماينبغى الا يعلم . لقد أختطفوا قاصد ايضا وحملوه الى دار بعيدة تقع فى أقصى السلطنة تقوم مقام مأوى للمشردين والعاجزين . هناك البثور الكالحة فى وجه السلطنة التى تعجز أن تبدو نيرة مشرقة رأى قاصد اين يختبىء الداء العضال . كان هوءلاء الرجال الاشداء ينقضون انقضاض الصقر على الشحاذ من غير كياسة ولا تلطف يزجونه بعربة مكشوفة كبيرة وينقلونه الى مأوى المشردين . هناك للانسان الحرية الكاملة فى ان يموت ميتة مريحة قبل أن يدركه علاج أو يتداركه طبيب .

لقد ضرب قاصد أكثر من مرة على ظهره وعلى خاصرته فتوجع مثلما يتوجع الكلب ، حتى التوت قامته وتضاءل أحساسه بانسانيته وغدت ذكرياته عن أيامه الاولى فى سلطنة البحر مثل العدم مبهمة مضببة يصعب عليه ان يتيقن وقوعها . هل كان هو حقا استاذا محترما يحيا فى البحبوحة والرفاه .

تذكر اخبار الرحالة مثل ماركو بولو وابن بطوطة وماجلان لقد طاف هؤلاء بارجاء المعمورة فى العالم القديم ، ركبوا متون البحر وصعدوا الى الجبال ومشوا على أقدامهم اياما وليالى وأختلطوا مع أقوام شتى من غير عاداتهم ولغاتهم وخرجوا من تجاربهم بحصيلة طيبة مفيدة هى جزء من الثقافة الانسانية فى هذه الايام .
لم يهبط أى منهم الى درك المهانة كما هبط هو ولم تنتهك أدمية أى منهم كما انتهكت أدميته . أنه لم يحظ قط بلقاء أمير او عظيم ولم يجالس وجيها أو سيدا . عاش أيامه مع الضعفاء والمسحوقين والملتصقين أشد الالتصاق بتراب الارض الموحل حينا والمغبر حينا آخر وهوءلاء هم الطبقة المسحوقة او الكثرة السوداء بل هم البشر .

فى الصباح يولى وجهه نحو احدى التكايا ينتظر مع المنتظرين أن تفد جنازة يعقبها بعض الناس يوزعون ارغفة الخبز المحشوة باللحم او السكر ، ثم يسلخ بقية ساعات النهار متسكعا متبطلا هائما على وجهه فى الازقة المتعرجة الفاسدة الهواء حيث يحيا الناس فى صمت ورتابة وقناعة . وقد يكلف أحياناً بحمل حقيبة او متاع ، فيدفعون اليه مبلغا زهيدا من المال يستعين به على ولوج مطعم من المطاعم المتواضعة يجرب حظه فى أكلة شهية تمد جسده بالقوة والثبات .فى مثل هذه المطاعم يكثر الاكلون من ذوى الدخول الحسنة نسبيا كاصحاب الحوانيت والقائمين بعمل ما فى سلطنة السلطان واصحاب المشاهرة والمأجورين فى المتاجر والمصالح والمعامل .

وفى المساء يقصد احدى التكايا حيث توزع وجبة عشاء رخيصة مجانا كالحساء أو المرق . وعندما يضيق ذرعا بحياة التفاهة والضياع ، يقصد فى الفجر الباكر ساحة شعبية كبيرة يجتمع فيها حشد حاشد من عمال البناء القادرين فقط على تأجير عضلاتهم لحفر الارض ونقل الاجر والخشب وخلط الكلس بالماء . يتنكب افراد هذا الحشد العاطل البائس ، معاولهم ومحاريثهم ، فيمر بهم أرباب العمل والمهندسون والمقاولون والملاكون فيصطفون بعضهم . يصطفون

القوى الذكي الملامح ويهملون الضعيف المريض والعاجز والمسن • كثيرا ما يتخاصم ويتدافع أفراد هذا الحشد من أجل الفوز بعمل يوم واحد •

هذا مشهد يذكر المرء بعصر النخاسة أو عصر الاسترقاق • صحيح أن الانسان في هذه الحال هو حر طليق ويملك الحق في ان يشتغل او لا يشتغل وان يمكث في بيته او يسعى الى عمل وان يموت او يحيا • هذا الحق لا يعدو ان يكون حرية الانسان في الموت جوعا وليس ثمة من يرغب فياستعمال هذهالحرية• اذن فليدخل الناس في الاسترقاق افواجا وأنهم لداخلون •

هذه التجربة الطريفة الفريدة كانت محببة الىقاصد ومثيرة ومشوقة للاستطلاع والتعرف وهي الطريقة الوحيدة التي تيسر له الدخول الى بيوت الاغنياء والموسرين والمرفهين والمنعمين وسراة السلطنة فقد يصعب أو يستحيل ان يدخل فرد من الدهماء الى بيوتهم العامرة او التي هي في طريقها الى العمران •

كانت قصورا فخمة عظيمة تشتمل على كل ما يخطر ببال بشر من أجل ان يجرب الفردوس على الارض قبل أن يجربه في السماء • قصورا باردة او دافئة يعزلها عن الفضاء الخارجي غلاف رقيق أو سميك ، فلا تنفذ ذرة غبار ولا تتسلل الشمس الا بمقدار • تطرد في الصيف حتى لتبدو الدنيا معتمة ، وتشرق في الشتاء حتى لتحسبها النار المشعة •

كان قاصد يحمل التراب على ظهره ساعات النهار كلها واذا ما اصفرت الشمس اعطوه اجرته ، وهذه الاجرة لا تساوي قيمة ملاطة فاخرة أو مصباح أو مزهرية توضع في الشباك أو علبة مربيات يطعمها طفل من اطفالهم • الانسان رخيص والحياة رخيصة في كل مكان ، وبالاضافة الى أن الطبقات يضطهد قويها ضعيفها فابناء الطبقة الدنيا يتبادلون التنكيل والاضطهاد فيما بينهم وحتى الابن يضطهد اباه والاب يضهد ابنه بسبب من الشحة وقلة تداول الطيبات والمنافع وحب الاستئثار الاعمى وافتتان الانسان الجاهل بزوجه وولده وثروته ومتاعه وطعامه وشرابه •

أن قوة سلطان البر تأتي بالدرجة الاولى من استحواذ روح الانانية على

الفرد وتمركز تفكيره حول تدبير أمور عيشه ، مقرونين باستعمال السيف والمال جعلت الناس زهادا ورهبانا لا تبتعد همومهم عن الخبز الذي يتناولونه • كيف يحصلون عليه وما الذى يفعلونه ليدوم هذا الخبز ولا ينقطع عن أفواههم • اناس مثل هؤلاء لا يتمردون ولا يثورون فان تمرد بعضهم أو ثار تداركه سيف السلطان فجعله شلواً ودماً من غير ذكرى ولا رحمة •

لم يلحظ قاصد اياً من امارات السخط على الناس • كانوا يتألمون ويتعذبون ولا يجدون منصرفاً لالامهم وعذاباتهم الا باضطهاد بعضهم البعض • كانوا مثل مساجين فى قفص ينهش بعضهم بعضاً وقد يأكل بعضهم بعضاً ولكنهم لم يفكروا قط أن ثمة قوة رهيبة صماء حشرتهم فى القفص وفرضت عليهم المجاعة •

أن هذه النقلة الذهنية الصغيرة • نقلة الفكر من الفرد الى الظالم البعيد وهو او هم جماعة او طبقة هى مفتاح الثورات وانطلاقة لوعى الانسان والشرارة فى البارود الخامد العاطل • وقد فعل ذلك العبيد والزنوج والمستضعفون والمظلومون وحتى الانبياء دعوا الى مثل هذه الثورات •

وقد انتهى قاصد الى الاعتقاد بان الظلم يبدأ من الاعلى ويزداد سحقاً على سحق كلما انحدر الى الاسفل ويبلغ الظلم منتهى شدته وجبروته وقسوته لدى الطبقة الدنيا • المظلومون يتعاركون ويتململون من اجل فسحة صغيرة أو كوة ينفذ منها شيء من الهواء • انهم كالسمك المحشور فى مصيدة السماك • لم يفكر السمك بمكيدة الصياد واحبولته ولربما يظن ان قدر له الظن ان البحر قد ضاق او جف ، فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا •

وجد قاصد الناس يتمتعون بقدرة لا تجارى على التزام الصمت • الصمت الذى يصطنعه الحيوان الابكم ، فيما لو ربط تحت وهج الشمس ، وحرم من الطعام والماء ، ونهشت جسده الحشرات وملأ عينيه الذباب • حاول قاصد ان يشتبك بالحديث مع بعض الناس ليستجلى امرهم ويسبر حكمتهم ويكشف عن مكامن همومهم وعذاباتهم • وجد الناس لا يستمرئون حديثه ، ولا يتقبلون

محاججته ويرتابون فى امره ويتحاشونه ويحذر بعضهم بعضا منه خشية ان يكون أحد جواسيس السلطان يستدرج الناس الى الهلاك • فاضطر فى اخر الامـــر الى الاقلاع عن السؤال واتبع حكمة المعري حيث يقول :

ولما رأيت الجهل فى النـاس فاشـــياً

تجاهلت حـــتى قيـــل أنـــى جاهـــــل

مضت الايام فلا شارق من نور ولا بارق من أمل • تشرق الشمس فـــى الصباح وتنصرم ساعات النهار وتحل الظهيرة ثم تأخذ الشمس بالانحـــدار نحو المغيب ثم تؤذن بالانطفاء فتخيم الظلمة ثم يجن الليل ويمضى فى سواده وحلكتـــه والناس فى بيوتهم يشخرون أو يتعذبون • يأتيهم الموت فينتزع بعضهم من مكانــه فيبكون وينوحون ثم تتدفق الحياة بمواليد جدد ، وتعقد الخطوبات وتعلن الافراح فيرقصون ويغنون على قرع الطبول ، ولم تنس المليحة كيف تزهو بالظـــرف والاينــــاس •

وذات يوم وقع الحدث العظيـــم ، فقد زلزلت الارض زلزالها وانشقـــت وتمعجت ، وبرز من جوفها شيء راعب ، لم ير قاصد مثله قبل اليوم فى سلطنة البر • رأى حشودا من الناس خارجة الى الشوارع تحمل الاعلام واللافتات،تهتف فى صفوف متراصة متماسكة يترشح السخط والغيظ من عربدتها هتف قاصـد « ازفت الازفة ووقعت المعجزة ••• انها المظاهرة » لم يخامره شك أن مظاهـرة خرجت الى الشارع تريد حقاً مسلوباً او تحتج على اجحاف وظلم ، فقـد رأى مثلها كثيراً جدا فى سلطنة البحر ، وهى هناك من المشاهد المألوفة • نظرها ملياً وعلى مبعدة ، فتنفس ملء رئتيه وشعر أن وجهه يبتسم لاول مرة أبتسامة فخورة منتصـــرة •

تذكر آلامه ومآسيه منذ ان حل فى هذه الارض ، اتهم سجن وعذب واهين وحمل التراب على ظهره وعاش على الصدقات • سمعهم يهتفون « نطالب باعدام الخائن ، وليسقط الظلم والعدوان » مشى قاصد اليهم مذهولا مفغور الفم شـارد

اللب وكانما تجذبه قوة خفية • اندس فى صفوفهم الاولى وردد مع الهاتفين « ليسقط الخائن ، ليسقط الخائن ، نريد رأس الخائن نريد رأس الخائن » •

هتف قاصد « ليسقط السلطان الخائن ليسقط السلطان الخائن » •

أستعاد هتافه فى تلذذ واشتياق ونهم وكانه يأكل طعاماً عز عليه نواله أو كأنه يغنى أغنية قريبة الى قلبه ، لصيقة باحلامه ومشاعره •

مر بعض الوقت قبل ان ينتبه المتظاهرون لما يقول وقد نظره بعضهم باستنكار وغرابة مثل عازف يعزف لحناً ناشزاً فى الجوقة واذ وعى القريبون منه كلماته المفزعة الرهيبة اشاروا الى رجال السلطان ان ينصتوا اليه فأنصتوا ملياً • انه يهتف بسقوط السلطان ، سأله احدهم بغلظة ووحشية •

ـ أي سلطان تريد اسقاطه ؟

اجاب قاصد فى تلعثم وانشداه وقد ادرك ان المسألة لها وجه اخر وقد تورط فى خطأ جسيم •

ـ السلاطين كلهم ••• حيثما وجدوا ••• ليسقط الظالمون وليسقط الارهاب ولتعش العدالة •

حمل قاصد حملا غير رفيق باذرع غليظة والقى به بعيدا عن الحشد الزاحف الذى كان يمجد السلطان لانه قضى على فتنة هوجاء اراد أن يفتعلها احد ولاته وألقى القبض عليه وهو الان فى محبسه ينتظر مصيره البائس •

لقد اشبع قاصد ضربا ولكما ورفسا حتى غاب عن الوعى تماما ولم يدر ماذا حل به • وبعد نحو اسبوع اخذ يتماثل للشفاء ويستعيد وعيه ، احس ان فى بدنه مواضع كثيرة توجعه وقد فقد القدرة على الانتصاب بسبب انكسار بعض فقرات ظهره وانه ضعيف مهزول أقصى ما يكون الضعف والهزال وقد علت محياه سيماء مكفهرة معذبة :

لقد مثل امام القضاء بتهمة التحريض على زعزعة حكم السلطان والمناداة بسقوطه والتهجم عليه والتطاول على مقامه السامي • فهو القائد والرائد وحامي البلاد والحكيم والمدبر •

قرأ عليه القضاة التهمة الرهيبة المحشوة بعبارات التمجيد والتكريم للسلطان والمحشوة كذلك بالمشاغب والمحرض ومفسد الحكم ومؤجج نار الفتنة والداعي لسفك الدماء والمهدم والمخرب والشرير والحقير التافه ، فقد اندس مثل الثعلب الماكر الخبيث في صفوف المسيرة الصالحة المباركة التي نكرم السلطان حق تكريمه وتدين له بالفضل لما اسبغه على الناس من خير عميم وبركة شاملة وأياد بيضاء لاتنسى ولا تجحد الا في النفوس اللئيمة الغادرة التي لاينفع معها دواء الا الموت الذي يستأصل مثل هذه الديدان التي تأكل في أساس السلطنة ولكن السلطنة لها بالمرصاد •

ان الحديث كثير واللغة غنية بكافة النعوت والاوصاف واهل الكلام لايقعون تحت حصر ، فقد اكثروا واطنبوا بسمين القول وغثه • صاح بعض الحاضرين لهذه المحاكمة •

— لتسحق هذه الدودة ولتذهب هباء • طهروا السلطنة من الحثالات والاوباش احكموا عليه بالموت لقطع دابر الفتنة ، وليكن عبرة لمن يعتبر •

مكث قاصد فيمحبسه الرهيب عدة أيام ينتظر أن يفدعليه الجلادون ويستاقوه الى المشنقة •

كان محبسه انفراديا وهو في غير المكان الذي سجن فيه أول مرة ، وكان مخصصا لمرتكبي الجرائم الكبيرة التي تهدد السلطان أو أمن السلطنة وكل الذين يدخلونه مصيرهم الموت او الحكم المؤبد •

في تلك الايام الرهيبة العصيبة التي يعانيها الانسان المشرف على مغادرة هذا العالم مغادرة فظيعة عنيفة • أستعاد قاصد في ذهنه الاحداث التي مرت به منذ ان وطأت قدماه سلطنة البر ليستجلي غوامضها ويكشف أسرارها ويستعلم عن خفاياها

وليفهم كيف يأتي السلطان وكيف يحكم السلطان وكيف ينتهي حكم السلطان . تذكر الكتب التي طالعها في هذا المعنى . وكان يدرس موضوعها للتلاميذ . ان الصراع كان محتدما وضاريا ودمويا في كافة العصور ، من أجل ان يكون للناس موضع في السلطة . أو ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم . في كل زمان ومكان يظهر الحكماء والفلاسفة والمشرعون ، منذ القرون التي سبقت المسيح وفي قرون من بعده . لقد قتل شيشرون واحتز رأسه على مشهد من اهالي اثينا ، وشرب سقراط السم واحرق برونو وقتل نظام الملك ، وهو من اعظم الرؤوس الفكرة في الشرق كله . وصلب الحلاج وتمزقت اشلاؤه . ومات عشرات ومئات الاحرار في الزنزانات والقلاع ولم يسمع بخبرهم احد .

أومضت في ذهنه وهو في محبسه الرهيب خواطر شتى ، منها ان السجن لا يصلح فاسدا والعصى لا تردع جائعا ، وان الذين يدخلون السجن أكثر من الذين يغادرونه ، وان ما ينفق على السجن وعلى هيئات القضاة والمحققين والموكول اليهم مطاردة المجرمين وهم جيش جرار يرهق خزانة السلطان ، وكان الجدير ان ينفق هذا المال على تحسين معائش الناس وتعليمهم وترفيههم ، وان أنقسام المجتمع الى فئتين ، فئة مهيأة لارتكاب الجريمة وفئة مهيأة للقبض على مرتكبي الجريمة لامر فظيع رهيب يجعل المجتمع يعيش في حالة ترصد وتأهب ومطاردة ومخادعة وهو بالتالي مضيعة جسيمة للطاقة البشرية المبدعة ، ولهذا السبب شهدت كل بقعة من هذه الارض دماء تسفك واعناقاً تلتوى وصدورا يمزقها الرصاص .

أقبل الجلادون لسوقه الى المشنقة ، بسط ذراعيه ورفعهما الى السماء في اذعان وصبر ، مشى امامهم الى قاعة نصف مظلمة ، في وسطها سلم ينتهي الى منبسط خشبي صغير يتدلى من سقفه حبل غليظ معقود النهاية . انها المشنقة وما في الموت شك لناظرها . وقف عندها قضاة وشرطة وسجانون وحراس ووجوه مكفهرة عابسة اخرى . وقبل ان يرقى السلم قال قاصد يحدث الحاضرين .

ـ انني لست من رعايا هذه السلطنة ، إنما أنا من رعايا سلطنة البحر ، وانني استاذ ومدرس ، بعثني ذلك السلطان لأستطلع واتحرى عما يجري في هــــذه السلطنة فأعرف كيف تساس الامور وكيف يعيش الناس . لقد قتل الشـــوق سلطان البحر ذاك لمعرفة ما تفعلون هنا ولِمَ أنتم هانئون مطمئنون لا يعترض على حكمكم معترض ولا يشور عليكم ثائر ولا يجأر مظلوم بمظلمته .

عندما نطق قاصد بهذه الكلمات الواضحة الرهيبة سرت في أوصال الجلادين والقضاة رعشة مباغتة ، كما لو ان تياراً باردا جليديا اخترق معاطفهم وثيابهـــم، ومس جلودهم نفسها . لقد أرهفوا الاسماع وحملقوا العيون واستفزوا الاعصاب والجوارح ، فطرفت عيونهم وانكمشت شفاههم وعبست في انصعاق ورعب ، بدوا وكأنهم لايصدقون . فهذا أول محكوم ينطق بمثل هذا الكلام بل لا ينطق على الاطلاق ، فكلهم بائسون منهارون يتلجلجون ويتلعثمون قبل أن تهوي بهم المشنقة الى الاعماق.

ـ كيف تثبت ذلك ؟ اعطنا برهانك ، قال قائل منهم ، فرد عليه رسول السلطان:

ـ لدي اوراق تثبت ذلك ، زودني بها السلطان الذي أنا أحد رعاياه ، لقـــد أمرني ان أكشف عن هويتي وصناعتي عندما أكون على سلم المشنقة وها انــــذا فاعل .

ســألوه في لهفة « اين هي الاوراق ؟ » .

اجاب قاصد في هدوء ورباطة جأش ورصانة :

ـ ان الاوراق ليست معي في هذا المكان ، انما أنا أخفيتها تحت حجـارة في خان قديم ، اويت اليه في الايام الاولى من قدومي الى سلطنتكم ، وأستطيع ان ادلكم عليها في اية لحظة تشاؤون .

لقد انحرف تيار الاحداث انحرافاً بيناً ، كان قاصد من قبل صعلوكا مهووسا مغامرا ، أراد ان يشاغب ويفتن الناس بلعبة خطرة فحكم عليه بالموت ، وما أسهل ان يحكم على امرىء بالموت وما أسهل من وضع الحبل الغليظ في عنقه وما أسهل

ان تخمد الحياة فى انسان رخيص زهيد القيمة من مثله الاف ومئات الآلاف يسعون فى أزقة السلطنة طلبا لكسرة خبز يأكلونها حلالا وبكل خشية وقناعة .

تبين للجلادين ان قاصد جاسوس ومتسلل ومخرب . جرت مداولات بين القضاة والسجانين فأستقر الرأي أن يتصلوا بذوي الشأن والخطر لتقرير ما يرتأونه فى حالة غريبة جسيمة الخطر والاثر . اتصلوا بهؤلاء فقرروا ان يؤجل تنفيذ حكم الأعدام حتى تطلّع الجهات المسؤولة على ماتيك الاوراق .

أخذوه مخفوراً الى الحجرة الصغيرة فى الخان فوجدوا فيها رجلا بائساً مهلهل الثياب ، يكاد يكون معتوها ، وحالما وقعت عيناه على المعشر الخشن خرّ على الارض ساجدا وأخذ يقبل الاحذية طلباً للرحمة والغفران « اننى بـــرىء أرحموا حالى وبؤسى » لم يبالوا بهتافه وتوسلاته ، أنما ركلوه بأرجلهم وأخرجوه بعيداً كما يفعل الناس مع كلب مزعج وسخ .

رفع قاصد الحجارة المحاذية للجدار وعند منغلق الباب ، حيث لا يمكن ان تقع عليها عين بسبب تكاثف الظلمة وبعدها عن موطىء الاقدام .

أخرج من تحت ركام من التراب والجص والكلس علبة معدنيـة سميكة ، فتحها بعد جهد جهيد وأخرج منها جملة أوراق صفراء سميكة تكاد تكون بالية ، مذيل أعلاها وأدناها بأختام سوداء وشعارات سلطانية وتواقيع جليلة مهيبة كتلك التى يحملها السفراء من لدن ملوكهم فى هذه الايام .

قرأوا الاوراق فى تمعن ورهبة شاعرين بالغبطة والانشراح ذلك أنهـم وفقوا الى القاء القبض على مجرم فريد نادر المثال لم يعثروا على مثله فى سالفـات الايام واسوف تشتهر اسماؤهم ويحظون بلقاء امراء السلطنة وتخلع عليهم الخلـع ويتقدمون فى مناصب الوظيفة بوصفهم حماة امناء أكتشفوا فتنة عمياء .

فى الاوراق صورة قاصد وهو بثياب أستاذ وقور ، مختومة بختم سـلطان البحر وتوقيعه حيث يقول : سيادة سلطان سلطنة البر ، دامت بركته وعلا سـعده

وشع مجده ووفقه الله الى الخير انه سميع مجيب •

اما بعـــــد

لقد زودت رسولنا وعبدنا قاصد بهذه الورقة المصدقة بختمنا وتوقيعنا من أجل أن تبسطوا عليه جناح رحمتكم وتأخذوه بالرفق والمغفرة ان تعرض لمـــكروه أو نابته نائبة أو هوى فى مصيبة ••• أسألكم أن تشملوه برعايتكم وانتم أهل لكل معروف • لقد احببنا ان يتعلم من تدابيركم وحصافتكم فى تمشية مصائر الناس فى سلطنتكم الخالدة ، فالدنيا كما تعلمون أقتباس وتقليد ومحـاكاة حتى يتكون لدينا الرأي الامثل وأنا للحق مهتدون وللباطل رافضون• والعدل اساس الملك والظلم خراب الملك وتقبلوا منا خالص الشكر والتقدير •

سلطان البحر

هزوا رؤوسهم فى انكار وغضب وتمتموا هازئين « يبعث الينـــا بجاسوس ليخرب ويشق الصفوف ويفتن الناس فى سلطانهم ، ثم يريد سلامته » •

اعادوه الى السجن واستجوبوه على نحو ادق واحكم وانضم الى قضاته قضاة أخرون أبرع وأدهى وأكثر تمرساً فى نصب الاشراك وملاعبة المتهم وانهاك اعصابه والتضييق عليه • لقد استنفدوا من الورق اضعاف ما استنفدوه فى محاكمته الاولى وأنفقوا من الساعات أضعاف ما أنفقوا من قبل وأتوا بالخبراء والعارفين ليتحققوا من صحة الاوراق وصحة الاختام وليتحققوا من ان قاصد رجل عاقل رشيد • لقد ذهبوا الى كل مكان ذهب اليه قاصد وكان فيه وسألوا هناك وأستفسروا ما الـذي كان يعمله وكيف كان سلوكه ومع من تحدث وعاشر وزامل ، وكيف كان يأكل وعلى أي فراش كان ينام •

وأخيرا صدر عليه حكم الموت مجددا بوصفه جاسوساً خطرا متسللا وغريباً نادى بسقوط السلطان •

تقررّ ان ينفذ الحكم فى ساحة عامة وعلى مرأى من الناس جميعاً •

أقتادوه من السجن الى الساحة العامة على متن عربة مكشوفة من غير مقاعد

البتة أنما قعد قاصد على أرضها مكبل اليدين والقدمين ، وقد أرهقه العذاب وبدد قـــواه .

كان يسمع هدير الناس يشتمونه ويسبونه ويبصقون عليه ، ورأى جموعاً غفيرة قد تسلقت الاعمدة وشرفات المنازل وقعدت على السطوح . كانوا يهتفون الموت للجاسوس . تمتم قاصد ، في باريس صنعوا كذلك بعد الثورة الفرنســية حيث سارت في الشوارع عربات مكشوفة عليها المحكوم عليهم بالموت . كان الكثير منهم شهداء . وقد قالت مدام ديمولان «ايتها الحرية كم من الدماء تسفك بأسمك».

كان الناس في كلا العصرين يتصرفون بوحي من عواطفهم لا بوحي مـــن عقولهم . كانوا القطيع الابكم الذي اجيز له الخروج من حظيرته الرطبة المعتمة ليهتف ويصخب .

لقد أختنق قاصد بحبل المشنقة وتدلى جسده الميت عدة ســاعات . وبعث سلطان البر الى سلطان البحر بالكتاب التالي :

أما وقد تبين لدينا بما لا يدحض ، ان أستاذكم المتخفي بأردية العلم لا يعدو ان يكون جاسوساً ساعياً الى الفتنة والشغب وهداما هذا لايجوز عندكم ولا يجوز عندنا ، لقد أخذت العدالة مجراها ونال المجرم عقوبته وهي عقوبة الموت . فقطعاً لدابر الفتنة وخشية ان تتكرر الالعوبة مرة اخرى ، فقد امرنا بأن ينقطع ما بيننا من صلات حتى تعتذروا عن اساءتكم الينا .

سلطان البر

حكاية عن السلطان

فى احدى زيارات السلطان الفاتح الى سوق النخاسة ، لقى غلاماً جميلا أزرق العينين كستنائي الشعر أشم الانف رقيق الفم أبيض البشرة ، يتزاحم عليه المشترون . أقترب منه السلطان وتفحصه ملياً ، فأذهله حسنه وبهاؤه وأمتشاق قامته واللون الرائع المصطبغة به عيناه .

وعندما علم النخاسون انه السلطان ، حنوا هاماتهم الى الارض وتسارعوا الى تقديم المعلومات عن الغلام .

قالوا : اسمه مهذار ، وأنه من الكرج أو البحار الشمالية حيث لا تشرق الشمس على الناس الا ساعة او بعض ساعة ، فتنجو أجسادهم من الملوحة والسمرة والتشقق ، وتستعيض عن ذلك بالبضاضة والغضاضة وتناسق العضل ووفرة الدم ، كان الغلام تجسيداً لكل هذه المحاسن . وإذ نطق الغلام شاكرا السلطان على رعايته وتفضله ، أطلقت شفتاه نغماً موسيقياً عذبا ، كانه الترتيل او خففة مباغتة على اوتار الكمان .

حمله السلطان الى بيته واوصى الملمين بالموسيقى والغناء ان يتعهدوه بالدرس والتهذيب ، وما هى الا سنة او بعض سنة حتى نبغ الغلام بقريحة متوقدة وذكاء عريض فى كل ضروب الغناء والضرب على الطنبور والعود ، كما أخذ ينظم المقطوعات الجميلة ويلحنها لنفسه ، ثم يغنيها فى محافل الطرب فيسكر الجالسون بصوته قبل ان يسكروا بكؤوسهم .

كانت متعة بطانة السلطان وضيوفه ان يحضروا الولائم والافراح التى يغني فيها مهذار . وذات يوم ماتت والدة السلطان فظن الناس ان صوت مهذار سيسكت فى فترة الحداد ، الا انه نظم مقطوعة غنائية حزينة فى ساعات ، ووضع لها اللحن الباكى المتفجّع وجلس فى العزاء ينشد اغنيته الاسيانه وكأن الميتة امه أو

أعز من امه ، فانطلق النشيج من الصدور وتتابعت الاهات والحسرات وتصببت العيون دموعا وذابت النفوس حسرات لقد أبدع مهذار فى مجلس العزاء كما أبدع فى مجلس الافراح وشهد له الجميع بقدراته وبراعته ، وكلما أحرز السلطان أنتصارا على خصومه وأعدائه وأذاقهم مر العذاب والويل ، أنطلق مهذار ينشد المدائح فـى تعظيم السلطان جاعلا منه القائد والملهم والمدبر والحصيف والامين وجامع حكمـة الاولين والاخرين وجاعلا من خصوم السلطان المخربين والدساسين والمعتوهـين والناطحين صخرة تتحطم دونها القرون •

لكل سلطان أعداء ومتربصون وحاقدون ؟ ان أمتصت السجون بعضهم ، وقطعت السيوف رؤوس البعض الاخر فالاخرون يهيئون ويدبرون ويتآمـرون حتى يجدوا لطموحهم منفذا • وكان ان بوغت السلطان مثلما يباغت الاســد الهصور فى غابته ومعقل حكمه ، فتلتف حوله الحبال ويتهاوى رأسه عنـد قدميه ويجــر من مكمنه العزيز الى قفص الببغاء ، وهكذا أخــذ الســلطان قهرا وأنكسارا ومذلة الى قفص يحيط به سجانون قساة غلاظ ، مجردا مـن هيبته وصولته كما يجرد اللصوص •

جرى خاطره الى مهذار المسكين الذي يقاسى مثله الام المهانة والاحتقار ، فتألم له مثلما تألم لنفسه • لقد حكم على السلطان المخلوع بالموت الرهيب • الحكـم الذي يقضى بقطع الرأس عن الجسد • وقبل ان ينفذ فيه هــذا الحكـم أرتأى السلطان الجديد أن يولم وليمة فاخرة يحضرها السلطان المخلوع فى قفصـه ليمتع نفسه ولاخر مرة بمثل هذه المسرات • والحق أريد له الازعاج والأذلال لا الامتاع والتكريم •

حمل الى القاعة فى قفص مصنوع على هيئه اقفاص البغاء وطرح فى زاويـة قصية وهو مشدوه مخبول ان يرى اثاثه وملكه ومجوهراته وجواريه وغلمانـه فى أيدى أسريه ومعذبيه • وجد الكرسى الذي اعتاد ان يقعد عليه مهذار خاليا ، فحسب أن مهذار ميت مقتول ، فتحسر عليه ، ولما التئم الشمل وأجتمع ما يمكن

جمعه من الرجال ، خرج مهذار من وراء الستائر ، عليه الجديد من المطارف والزينة فأمعن فيه النظر وهو لا يكاد يصدق •• أمسك مهذار بالطنبور كما كان يمسكه من قبل وغنى مثلما كان يغني من قبل ، بل خيل للسلطان انه أكثر سحرا وجودة ونشاطا ، وكأن لم يحدث ما حدث ولم يسقط سلطان ونزل دولة وأحكام كان مهذار يتجه بأنظاره احيانا الى السلطان المحبوس في القفص يستهزيء به ويخرج له لسانه دون ان تختلج في وجهه عضلة توحي بالخجل والاحراج وكأنما يراه لاول مرة في هذه الليلة بالذات • غنى بكل ما في طاقته من فن وأبداع وتألق ، فتمايلت الرؤوس وانتشت الانفس وتهادت الخصور وانبعث الوجوه مرحاً وأستئناساً •

وقبل ان ينبلج الفجر ، حضر الجلاد الرهيب ومعه السيف القاطع لينفذ حكم السلطان الجديد بالسلطان المخلوع • جاء رجل الى المخلوع وسأله أن كان يرغب في قول شيء • قال « أود أن أرى مهذاراً » فجاء مهذار ووقف ازاء السلطان من غير أسف ولا ندم ولا خجل • قال له السلطان « ما الذي جعلك تخونني ؟» أجاب مهذار « لانك خنتني » •

فدهش السلطان وقال « كيف يمكن ان أخونك وقد رعيتك وأغدقت عليك النعم والخيرات ، وجعلتك شيئاً كبيراً ، حيث لم تكن من قبل شيء » •

أجاب مهذار في ثقة « انك افسدتني وقتلت ضميري وخنقت احاسيسي الانسانية وجعلت مني بوقا وطبلا وصناجة • جعلت مني لسانا عريضا لامجدك وأرفعك وأغطي عيوبك ومخازيك ، وأتستر على ظلمك وتفاهتك • ولقد فعلت ما فعلت وأنا أكبح شعوري بالاحتقار لشخصك التافه » •

أبتأس السلطان المخلوع لهذه الصراحة المؤلمة وسأل مهذار « ومن يدريك ان السلطان الجديد خير مني ؟ » •

أجاب مهذار « انه ليس خيرا منك ، بل مثلك ، ولو كان خيرا منك لقتل

خداعا مراوغا مثلى ، ولكنه لم يفعل لانه يريد طبلا وبوقا وصناجة ، وليس ثمة من هو خير مني » •

سأل السلطان أخيرا « متى تموت مثل ميتتي ؟ »

أجاب مهذار « سأموت مثل ميتتك وأبشع منها وأفظع عندما يأتى سلطان صادق عادل ، واذاك لن أحس لحياتي قيمة بل أكون مسرورا لان عهد الطبالين والبواقين والصناجين الذين يستخدمون لدى السلاطين قد ولى وأنتهى ، وبزغ عهد الشعوب وهذا ايذان بانبلاج عهد الحرية •

مضى مبتسما وكأنه لم ينطق بكل هذا الكلام الخطير ، تاركا السلطان المخلوع يتلقى ضربة السيف على عنقه •

مهرجان السلطان

في عهد غير سحيق ، كان يحكم في موضع ما من المعمورة سلطان من السلاطين .

كان سلطانا حاذقا ذكيا ذا موهبة لا تبارى ولا تجارى في ميدان الابتكار ، ولعله بز مكيافيللي أو تتلمذ عليه ، ففي أحيان كثيرة يكون التلميذ أدهى من أستاذه ، لقد تفوق على مماليك مصر وسلاطين ال عثمان واتى مالم يأته المغول والتتر والجركس .

من بدع هذا السلطان الاريب الرهيب ، انه اقام يوما مشهودا في السنة جعل أسمه (يوم الانعتاق) وهو يشبه الى حد كبير المهرجانات التي تقام في هذه الايام .

في مساء ذلك اليوم تطفأ انوار المدينة ولا توقد حتى شمعة واحدة ولا يسرج مصباح أو فانوس ، فيعم الظلام حتى لا تتبين العين عينا مثلها ، عند ذاك يفتح السلطان أبواب السجن ويطلق سراح مئات المساجين بينهم القتلة واللصوص والسفاحون وبينهم ايضا نفر صغير من خصومه ومناوئي حكمه . يلبسون جميعا لباسا موحدا ، وهي أسمال ممزقة رثة ، ولا يضعون في أرجلهم أحذية أو نعالا ، ويجوعون يومين كاملين ، وتحلق رؤوسهم على نحو بشع منفر ، وتخطط جباهم ووجناتهم بأصباغ مفزعة حتى لايتميز الواحد من الاخر ولا تميز الزوجة زوجها ولا الابن اباه ولا الاب ابنه .

ينطلقون جميعا مثلما تنطلق الجواميس والدببة والاسود في حلبات المصارعة الرومانية ، كل يريد بيته ليأوي اليه ، ليس من أجل أن يأكل ويشرب ويستريح، وانما ليأمن على حياته قبل ان يدركه الفجر وهو من غير مأوى فيخرج اليه جنود السلطان ويقتلونه بالرصاص بوصفه نفاية اجتماعية مطرودة مهانة .

فى ذلك اليوم تغلق ابواب البيوت بالمتاريس وتتسلح بالقضبان والاقفال لصد هجمات المساجين المتوحشين الذين يباح لهم القتل فى مثل هذه الاحوال التى تستثير فيها العواطف وتستجيش الغرائز ويمتزج الشوق بسفك الدم بالحذر والذكاء • قد تنشب المعارك بين الاخ وأخيه وبين الابن وابيه وبين القريب وقريبه وهم فى غمرة الدفاع عن حياتهم وفى غمرة الهرج والمرج البالغين • لقد حذر السلطان الناس من ان يؤووا الى بيوتهم سجينا ليس قريبهم أو نسيبهم وكل من يفعل ذلك ينزل به شر عقاب ، فكان الخوف والهلع يستبدان بكل نفس ويحيطان بأقطارها جميعا ، وليس من يدري ان كان سينعم بلقاء غائب عزيز أو ان يقتله بيديه ولا يعلم من امره شيئا •

لقد هيأ السلطان لمعارك الدم أسبابها ومسوغاتها وأسترخص حياة رعيته مثلما تسترخص حياةالكلاب والفئران ولم تعد للنفس قيمة أكثر من قيمة عود الثقاب التالف •

فى فجر اليوم التالى ينطلق جنود السلطان جائبين الازقة منقبين باحثين فى الزوايا والخفايا والتكايا ، فأن عثروا على سجين لم يؤوه بيت ولم يرد الى أهله قتلوه بالرصاص • ثم يجري أستجواب عسير ظالم لاولئك الناس الذين تستروا على السجين الغريب وسمحوا له بالمبيت فى بيوتهم ، قد يقتلون رب البيت او يسجنونه •

هذه البدعة السنوية المهولة الفظيعة تنزل على الناس نزول الوباء الجائح تتركهم من بعدها فى اسى ومناحة وفقدان صواب • كانت غاية السلطان من هذا الفزع الاكبر تخفيف الضغط على سجونه وتوفير مواد غذائية وتنظيف السلطنة من الاوباش والنفايات وقتل ما يمكن قتله من خصومه وارهاب الناس بميتة شنيعة مؤلمة •الا انه وجد بعد سنين من ممارسة هذه البدعة السنوية الدامية ، أن عدد الذين يقتلون برصاص جنوده أخذ بالتناقص ، وان عدد الذين يصرعون عند ابواب البيوت لم يعد شيئاً مذكوراً • كان معظم المساجين أو كلهم يعودون الى بيوتهم أو الى بيوت أخرى معززين مكرمين ، وحتى أولئك الذين يقعد بهم النصب والمرض

والاعياء يجدون من يبحث عنهم ويحملونهم الى البيوت الوادعة متحدين أوامـــر السلطان وتحذيراته غير مبالين بتهديده ووعيده •

شعر السلطان ان لعبته الدامية لم تعد مشوقة وان مهرجانه المثير لم يأتـــه بالربح المنشود ، وان أبتكاره الفريد غدا وبالا عليه •

تساءل السلطان : اين ذلك الدم الكثير الذي يلطخ أبواب البيوت ، وايـن تلك الاجساد المضرجة المهروسة المسحوقة واين تلك المشاهد المثيرة المرعبة •

أخذ السلطان يدرس الموضوع ويتحراه تحري الباحث الحكيم ، مضـى الى السجن ليستطلع فوجد ما أرعبه • وجد المساجين يعيشون جميعا فـى وئام وأنسجام وكأنهم أبناء ام واحدة واب واحد ، حتى ان أحقر نشال فى السـلطنة نظر الى السلطان نظرة أحتقار وازدراء •

وعندما عصفت العاصفة بعد بضعة أعوام وجد فى أندهاش وهلع أن المساجين وأهل المدينة كلهم يزحزحون أبواب سلطنته ويقلعون متاريس قلاعه ويقوضون ركائز حكمه •

لقد فعلوا هذا مثلما فعلوا مع أنفسهم فى السنين الخوالى •

نبوءة للسلطان

أعتاد السلطان أدام الله عزه وأسبغ عليه الخير والرضوان أن يبعث بكبير وزرائه الى الاقطار البعيدة حاملا التحيات والتمنيات الى سلاطين مثله • يحكمون فى بقاع أخرى من هذه المعمورة • فى هذه التحيات والتمنيات عبارات رقيقـــة تدعو بالخير والسعادة للسلطان ولرعيته ، وعندما يحضر كبير الوزراء مجـــالس السلاطين يمتدح مولاه ويشيد بحكمه ومراسه وتبحره فى العلوم والمعـــارف ورغبته العارمة فى الاصلاح ونشر العدالة ، وان كان من كل ذلك براء •

لاحظ السلطان بعينه الثاقبة وببصره الحاد ان كبير وزرائه يزداد غمـــاً على غم كلما عاد من أحدى تلك الرحلات ، يعود كئيباً متبرماً ضيق الصدر ، تملأ رأسه الوساوس ، فأخذه الاندهاش من هذا الحال ولم يجد له تعليلا • وفـــى أحدى الجلسات التى يسكر فيها السلطان وينطلق على سجيته فـــى الامتـــاع والموآنسة خطر له ان يسأل كبير وزرائه عن سبب كآبته وتبرمه بعـــد العودة من كل رحلة •

قال كبير الوزراء بعد تلكؤ ومداورة ، اذ كان على عظم مركـــزه وســـمو مكانته يخشى الصراحة والمواجهة لئلا تثور الاحقاد فى صدر السلطان وتؤول الامور الى الخراب والبوار • قال فى محاسنة ومداهنة •

ـ يا سيدي انني رأيت بلادا أخرى تحيا على غير ما يحيا به سلطنتنا ، فهنـــاك بدع وأمور لم نستحدث مثلها ، وطبائع لم نسس رعيتنا على مثلها ، ومسالك غير التى نفهمها وندعيها ، وانماط لم نألفها ونعتدها » سأل السلطان باهتمام « عن أي شيء تتحدث ، اننى لاود ان أفهم » •

شرح كبير الوزراء بنبرة انيسة موقرة فيها الرجاء والالتماس والتبســـط والايناس •

- في الامصار الاخرى مجامع ومجالس يتحدث فيها الناس كما يحلو لهم الحديث ويناقشون الامور كما يحلو لهم النقاش ، وكأنهم فى بيوتهم وبين أولادهم وأسرهم • لديهم كتاب لست أدري ما أسمه يرجعون اليه عندما تلتبس عليهم الامور ويختلط الحق بالباطل ويمتزج الجد والهزل وتقترب الحقائق من الاراجيف ، فهو مدار الفتوى ومقعد الصواب وعنده تحسم الخلافات وينقشع الغيم يقال فى هذا الكتاب حديثا عن السلطان ومجال حكمه وانتهاء نهيه ، وعن مجيئه وطلوعه وما يملك وما لا يملك ، والناس هناك يسهرون ويمرحون ويعاقرون الخمور جهارا فتنتشى انفسهم وتجود قرائحهم وتتفتق عبقرياتهم فيبدعون فى كل فن وصناعة • ولن ترى على سحنة مخلوق اية الكآبة وانحصار القلب ولوعة النفس وقلق الروح • ترى الناس بشرا لا هياكل عابسة جائعة تتقاتل من جهل وتتخبط فى ظلمة ، وعندما أسأل أقول وانا كاذب ! أنا في خير والرعية تحيا فى بحبوحة والحياة رخية هانئة ، والمزارع محملة بالثمار ، والارض خصبة والحياة موفورة والمرضى في ندرة الياقوت بل ان مستشفياتنا تشكو من قلة المرضى • ومدارسنا تشكو الزحمة والاكتظاظ ، وحتى ديوجينوس نفسه لا يعثر على جاهل •

لقد وجدت بعد حين اننى بالغت بالكذب ، وقلت ما لست أؤمن به ، وهذا ما يكربني ويحزنني ويعذب ضميري • فأسألك ايها السلطان العظيم ، أن تبادر الى التنفيس عن كرب الناس فتجلو الغم عن نفوسهم وترسم الابتسامة على وجوههم وتنعشهم وتحييهم » •

هذا الحديث قدح فى نفس السلطان فتلاشت الابتسامة عن شفتيه وأكتسى محياه بذلك الكساء الرهيب الذي ينذر بالغضب • قال :

- حديثك عجب ايها الوزير الكبير ، وكأنك لست من رعايانا المفضلين المكرمين ، لقد أئتمنتك على ملكي وأقمتك حاكما يأتي حكمك من بعد حكمي وطالما تلمست النصيحة من رأسك وسألتك الرأي والمشورة واستخلصتك

الى مجلسي وجعلتك عشيري ونديمي ، وأنتدبتك سفيرا تجول فى الامصار وتجالس السلاطين وتحمل اليهم تحياتي وتبريكاتي ، وبعد كل ما أسبغت عليك من نعمة ، تأتي الى بحديث وددت ان تموت قبل أن تلفظه شفتاك •

رد عليه كبير الوزراء فى تريث وتأمل :

ـ حديث الموت هو حديث الخراب ، يستطيع مولاي السلطان ان يميت الألاف فى اليوم الواحد ، ويهدم مثلها من البيوت وان يجعل الارض المأهولة قاعا صفصفا تنعق فيها الغربان ، ولقد فعل هذا جبابرة كبار فى التاريخ ومنهم الغزاة والمحاربون ، ولوا وأندثروا وما تركوا من بعدهم غير الخراب والدمار • انني لاود ان تقول شيئا غير هذا وان يميل بك الخاطر الى الابداع والخير والبناء ، فأن أقبلت معي فمرحبا وأن أعرضت عني فانني مزايل مكاني فى مجلسك وحكمك •

أطرق السلطان مليا يقلب وجوه الرأي فيما ذهب اليه كبير وزرائه • لقد كانت تساور نفسه فكرة الاصلاح منذ زمن بعيد ، ولكنه خشي العاقبة من ان يعتاد الناس على شيء لا يستطيع توفيره لهم فى كل الاوقات ، وان كذب وافترى وخلق من الطين بشرا يقعدون ويثرثرون فى صميم شؤونه ، فلابد من ان تدب الحياة الى ذلك الطين أو ان يعود الطين الى الارض التى أخذ منها فيوطأ بالقدم فلا يغني ولا يفيد •

سأل السلطان فى حيرة واغتمام « كيف يحدث هذا فى البلاد البعيدة ؟ »

أجاب كبير الوزراء فى بداهة واقناع وهو يتحسس سبيله الى عقل السلطان

ـ كل شيء هناك من أجل ان يكون عمر الانسان نزهة مريحة ، وكل شيء مسخر لأسعاده وراحته ودفع الأذى والضيق عنه • ان أعمار الناس هناك مثل ضيافة صديق فى بيت صديق ، لا يكدره ولا ينغص مجلسه ، أنما يريحه ويسعده • لقد زينوا الحياة وزخرفوها وزوقوها ، واذ تحين منية أحد من الناس يأسف ويجزع لانه سيحرم من رؤية الجنائن ومن الاستمتاع بمجالس احبائه ولسوف

لن يرى الشمس الجميلة المنعشة التى يغمر بهاؤها الدنيا • ان السعادة لـــدى اولئك الناس نابعة من قلوبهم ومن أعمق أعماق نفوسهم ، وأنهم لواثقون انهـــا سعادة دائمة وعميمة وللناس جميعا •

أدرك السلطان مغزى هذه المحاججة وما ستجر اليه من عـواقب وويـلات وأخطار قال فى يأس وعجز •

ـ لا نستطيع ان نغيّر شيئا دون ان نغير الاشياء جميعها ، فـأن وهبنـا الناس كل مايريدون قعدنا نحن مفلسين ، وقعد الناس عاطلين متبطرين • نحن ندفع الناس للعمل والخدمة والكدح بقوة المال الذي فى ايدينا ، وانهم لصابرون قانعون ، واجدي لهم من ملاحقة النفس بالشره والطمع •

سأل رئيس الوزراء « ما هو دليلك ان الناس صابرون قانعـون متقبلون للبلوى تقبل المعلول لعلته ؟ »

هتف السلطان بغضب « سأضرب لك مثلا مشهودا » بعد ثلاثة أشهر تحـــل ذكرى عيد ميلادى • فى هذه الذكرى ستخرج مواكب الناس كافـــة الى الشوارع تحييني وتدعو لى بالعمر المديد • وخـــلال ذلك سوف أزيـــد الضرائب ، وأسلب من كل ذى نعلين نعلا » •

ـ أجاب كبير الوزراء فى أستسلام « لن أكون انذاك كبير وزرائك انما اوثر الهيام على وجهي فى أرض بعيدة فلن تعرفني ولن أعرفك •

بعد أيام من هذا اللقاء أستدعى السلطان كبير حراسه وأمره أن يجمـع عددا وفيرا من الاشداء المقاتلين ، وذوي البأس والبطش ، وان يوزع عليهـــم الكساوي ويجري عليهم المرتبات ، وان يكونوا متأهبين متجهزين لتنفيذ أوامر السلطان ، وأستدعى كبير ديوانه وأمره ان يجمع عددا وفيرا من المنادين الجهوري الصوت وأصحاب المنطق والمتكلمين والقادرين على نظم الشـــعر والمتفوهـــين والثرثارين السليمى اللسان وذوي الحجة والمغالطة ، فأجزل لهم العطاء واصطفاهم لمديحه وتبجيله واغداق الالقاب عليه •

بعد ان جهز السلطان هذين الجيشين ٠ جيش القتال وجيش اللسان ، أصدر أوامره المطاعة المباركة ان ترفع الضريبة على القمح وأن تكون عشر حفنات على الكيس بدلا من حفنة واحدة ، وأصدر أوامره بعد ذلك ان يكون لكل فرد من الرعية فردة نعال واحدة ، وان يسلم الاخرى الى الجباة فى مدة قصيرة ، ومن يتخلف ويعصى أوامر السلطان يعاقب شر عقاب ٠ خرج الاشداء المقاتلون يقتحمون البيوت ويترصدون الناس فى الازقة لانتزاع فردة نعال من ذي فردتين ، كما خرج المنادون والمتفوهون والثرثارون يمجدون السلطان ويدعون له بالنصر والسؤدد ويصفونه بالعظيم والمفكر والمدبر والداهر والعارف بملته !

خلال شهر تكوم عند مداخل قصر السلطان تل عظيم كبير من فردات النعال تمطر عليها السماء حينا وتحرقها الشمس حينا اخر ، والناس يروحون ويغدون بفردة نعال واحدة لا يشتكون ولا يتذمرون ولا يتساءلون علام هذا ، ولم هذا ، وما الحكمة من هذا ٠ ولكن أشاعات كثيرة خرقت اسماعهم تقول ٠ ان بعض المتهورين والمشاغبين الذين أرادوا زرع الفتنة وتشويش الافكار وتعكير صفو الحياة فى السلطنة قد زجوا فى المعاقل والمحابس المظلمة وسملت عيونهم وبقرت بطونهم ، جزاء ما أقدموا عليه من العصيان والتمرد وزحزحة ايمان الناس بسلطانهم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

وعندما دنا عيد ميلاد السلطان اوعز للمتكلمين أن يرفعوا اليه التماسا يرجونه أن يعيد للناس فردات نعالهم ، وهو المعروف بالفضل والمروءة وأستجابة الدعاء ٠ وبعد رد والحاح كاذبين أصدر السلطان أمره بتلبية هذا الطلب خدمة لرعيته ٠ فاندفع الناس الى تل فردات النعال ينقبون وينبشون متدافعين متزاحمين، فنشبت بينهم المعارك وتدفق السباب وركل الاطفال وأهينت النساء ونهب الاقوياء نعال الضعفاء وخرج المنتعل من غير نعال ، وتهاوشوا وتضاربوا وتجاذبوا بالنواصى والاقدام ٠

وفى غمرة أقتتال الناس على فردات نعالهم وتهافتهم وتصارعهم وأنهدار معالم أدميتهـــــم •

دعا السلطان رئيس وزرائه واوعز اليه ان ينظر الى الناس الذين يتحدث المغفلون عن بأسهم وصلابتهم • نظر الرجلان من خلال الشبابيك الحديديـــة الشامخة ومن وراء السجف الحريرية من احد أبهاء القصر العظيم • بكى رئيس الوزراء بدمعتين فقط مسحهما بظاهر كفه ، ولم ينبس ببنت شفة • لقد اوجعـــه المنظر البائس

وبعد أيام حلت ذكرى ميلاد السلطان فخرجت جموع الناس مهللة مزغردة بهذه الذكرى السعيدة الفريدة ، القى الشعراء قصائدهم وامتدح الخطباء سلطانهم، وتدفقت الالسن المدربة الفصيحة تصوغ عبارات الولاء والفداء للسلطان العظيم ، أعزه الله وجعله منارا وهدى للعالمين وسلط نارا وعذابا على المنافقين الدجالين • وقد همس عدد قليل جدا جدا من الناس « لم لايرفع السلطان ضريبة القمح فيخفف عن البلوى وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » لقد أمتدت أيد غليظة رهيبة امسكت باعناق اولئك الهامسين وذهبت بهم الى حيث لا يدرى أحد •

لقد قالوا ماليس ينبغى ان يقال وفكروا بالمحظور والممنوع •

اعتزل رئيس الوزراء منصبه وطلب ان يهجر السلطنة ويطوف فى أرض الله الواسعة الا أنه تنبأ للسلطان بيوم قريب ينهار فيه حكمه ويتبدد شمله وينهزم جيشه•

وتحققت النبوءة بعد حين قصير • أن اولئك الذين اندفعوا الى قصره بالامس يريدون نعالهم اقتحموا قصره اليوم يريدون رأسه • لقد قتلوا السلطان •

مدافع السلطان

عاشت سلطنة السلطان لعدة قرون حياة أمن ودعة وأستقرار ، يأتى جيل ويرحل جيل ويأتى سلطان ويرحل سلطان دون ان تصاب السلطنة بتصدع او أضطراب أو فتنة أو تمرد • حياة وديعة ساكنة اشبه بسطح البحيرة فى اصيل ربيع مشمس • الا أن الامثال تقول أن كل حال يزول ويزول فعلا وان أعتصم الناس فى كهف جبل أو عاشوا فى بيداء خواء قواء • لقد تموجت انباء من امكنة بعيدة جدا تقول ان فى بلاد اخرى تفصلها عن السلطنة بحار وقفار تحدث المشاغبات والفتن فيخرج الناس الى الشوارع معربدين غاضبين يطالبون باطلاق سراح رجل واحد احتجزه السلطان ، أو ان يترك العمال معاملهم أو أن يتلفوها ويحرقوها لان السلطان رفض رفع أجورهم درهما واحدا ، أو أن يتآمر بعضهم فى جنح الليل لينقض على السلطان أو يقتله أو بتشييع عدد من الناس ضد السلطان يريدون عزله ، وقد يعزلونه ويقعدون مكانه أو أن ينكشف امرهم فيعلقون على جذوع النخل اعناقهم فى الحبل وارجلهم تؤرجحها الرياح • او يعربد فى وجه السلطان نفر من المعارضين لحكمه يريدون الاصلاح والرفاهية ، والاكثر غرابة من هذا أن السلطان يدفع لهم اجورا على تعنيفهم له ويدعوهم الى ولائمه ويلتمس رضاهم ونصحهم •

أخذ الناس يتساءلون امثل هذا يقع عندنا كذلك ؟ وأن وقع فما هى نتائجه واحكامه ، وأخذ بعضهم يؤكدون أنه واقع لامحالة وكل آت قريب والمستقبل كشاف ، والارض لاتدور على قرن ثور ، وأن السلطنة لاتهب ولا تدب ولاتطمح الى شىء ولا تسعى الى خير •

أخذ السأم يشقى الانفس ويرمضها حتى فترت الهمم وخمدت الاحاسيس

وتبلدت العقول وضاق الناس ذرعا بحياتهم التى غدت اشـــبه بمقبرة فى صمتها وكآبتها .

شعر الناس بالضيق الذى يساور الانفس وردود الفعل المهيجة للخواطر وما ينجم عن كل ذلك من خطر محقق كالخطر الناجم عن ماء فى مستنقع اسن. جمع السلطان وزراءه فى قصره المنيف المشيد على سيف البحر فقعدوا فى رواق ممدود على اعمدة رخامية يغوص ادناها الى بعد بعيد فى مياه البحر . نصح بعضهم السلطان ان يفتعل بعض الاحداث ويسهل للناس ان يخرجوا فى مواكب الـــى الشوارع يهتفون وينادون، وأن كان الامر كله تافها، ثم ينفصل السلطان بأن يتكرم عليهم بالشىء الذى تظاهروا من أجله . او ان يفتعل بلبلة فى مصانع السلطنـــة فيضرب العمال ويتدفقون الى الساحات العامة ساخطين متبرمين فينبرى زعماؤهـم لالقاء الخطب والبيانات ثم يوعز السلطان بتسوية امورهم بالتى هى احسن فيعظم صيته وتكبر منزلته ويكون قد فتح منافذ للتنفس عن كرب الناس وهمومهـم ، فليس من ضير ان يجمع السلطان رهطا من المعارضين لحكمه يقعدون تحت قبة مجلس مطوق بجنوده وحرابه فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا انما هـم بارعون فى الثرثرة والهذيان ، الا أن السلطان رفض هذا العرض باباء وشمم مدعيا انها فاتحة للشغب والفتنة وسوء الحال ، وقد تتكرر فيعظم خطرها وتفدح بلواها فيقتضى لمباشرتها واخمادها سفك الدماء ، وهذا ما تشمئز منه نفسه .

اخذ السلطان يروح ويجىء ساندا ذقنه الى ظاهر كفه يرنو الى البحــر المتلاطم الامواج حيث تقع عند مرمى البصر جزيرة صغيرة مهجورة لا يسكنها من الحيوان غير الافاعى والثعالب والصقور ، ومن الانسان المرضى الميئوس من شفائهم والمعتوهون فى اقصى درجات العته . اشار السلطان الى الجزيرة هاتفا ــ هنـــاك الحل ــ بهت الوزراء وتساءلوا باعينهم قبل السنتهم . كرر السلطان ــ هناك الحل فى تلك الجزيرة ــ

سألوا باندهاش ــ كيف يكون ذلك ايها السلطان العظيم ؟ ــ

قال السلطان ـ نبعث بعض جنودنا الى الجزيرة ومعهم المدافع الثقيلة ويلبسون جميعا بزات تختلف عن بزات جنودنا ويصبغون مدافعهم باصباغ تختلف عن أصباغ مدافعنا ويحملون شعارات ورتبا غير التى نتعامل بها فيختلط الامر كله على الناس •

سأل أحدهم ـ وما جدوى هذا كله ؟ ـ

اجاب السلطان مهدئا من اندهاشه ـ يمثل جيش الجزيرة الجيش المهاجم المعتدي فيضربنا ونضربه ويحاربنا ونحاربه ويداعبنا ونداعبه • نفتعل حربا مسرحية توقظ بها المشاعر الخامدة والاحاسيس الفاترة والهمم المسترخية • اننا نلقى الحطب فى النار الموشكة على الانطفاء فيتصاعد اللهب ويعمى الدخان العيون ، ثم تخرج المواكب والمسيرات الى الشوارع تريد الحرب والتعبئة العامة وسحق المعتدى حتى أظافر قدمه •

شعر الوزراء جميعا أنهم أغبياء الى حد بعيد بالقياس الى فطنة السلطان وعبقريته ، حنى الوزراء هاماتهم صاغرين مؤيدين ومعترفين له باللوذعية واصالة الرأى •

فى جنح الليل البهيم مخرت عدة سفن كبيرة فى البحر وهى فى غير الوانها واعلامها ، عليها عدة مئات من الجنود فى غير ارديتهم وشاراتهم وشعاراتهم مع عشرات المدافع الثقيلة مطلية بشتى الالوان • عسكرت هذه القوة عند ساحل الجزيرة محتمية عن الانظار بين الاغصان الكثيفة والستائر الملونة ، وفى منتصف ليلة من الليالى أخذت تطلق مدافعها على ساحل السلطنة فقتلت وجرحت بعض الناس وسرعان ما انتشر خبر يقول : أن جيشا أجنبيا معتدياً قد تسلل الى الجزيرة من البحار النائية وانه فى لبوس غريب وهيئات شرسة مزود بالاسلحة الفتاكة الرهيبة ، يريد غزو السلطنة واستعبادها وحكمها بالقهر والارهاب • هذه السلطنة الحرة المستقلة الرافلة فى البحبوحة والعيش الرغيد والتى عاشت عدة قرون فى أمان وسلام وراحة بال • ودعا بعضهم الى اعلان الجهاد والحرب فى سبيل

الوطن وسحق المعتدي حتى نخاع عظامه .

أمر السلطان ان تنصب المدافع فى الحال على طول ساحل السلطنة وان تطلق نيرانها الحامية على الجيش الغازى المعسكر فى الجزيرة . فأخذت القنابل تتقاذف من الساحلين ، واخذت البلاغات الحربية الطنانة تنشر كل يوم ويقرؤها المنادون فى الازقة وتذاع اسماء القتلى وهم شهداء الواجب والوطن وتجزل العطايا لذويهم ويمنحون رتبا ويفكر بعضهم فى أنشاء نصب لهم يخلد بطولتهم واخلاصهم ووجد الشعراء ان المناسبة قد ازفت لتنشيط قرائحهم ، فنظموا القصائد الحماسية منسبهين أنفسهم بالمتنبى وابى تمام ، كما غنى المغنون اناشيد الحرب مشبهين السلطان بالاسد الهصور وحامى الثغور والصميدع الصمصام ادا تنحنح وعطس لاذ الابطال بالفرار .

أخذت أخبار الحرب تسبق كل خبر فى المحافل والنـــوادى والبيوت ، وخرجت المظاهرات تحى السلطان وهو على شرفة قصره فيلوح بذارعه واعـــدا أياهم بالتعبئة العامة والحملة العسكرية القهارة ، وكلما شحت المؤن والذخيرة لدى جيش الجزيرة امدهم بالمزيد وامرهم بافتعال الحرب وكتم اسرارها ولكن الجيش المعسكر فى الجزيرة أخذ يسأم اللعبة ويشمئز من حرب مفتعلة يذهب ضحيتها الابرياء وتهدر فيها القوى والسلاح والمال ، فأستقر بينهم الرأى على فضح الاكذوبة وهتك المناورة اللئيمة ، فانقطعوا عن اطلاق مدافعهم وتسللوا الى الجانب الاخـــر يعلنون الحقيقة لجيش الجزيرة والناس أجمعـين فأستشاط غضبهم وامتلأت نفوسهم كرها للسلطان المخادع الاثيم ، فهبوا على قصره وكأنهم الاعصار ، فأقتلعوه قلعا ، خرجت جموعهم تطوف الشوارع فى مظاهرات صادقة حقيقية ونظم الشعراء قصائد صادقة حقيقية ايضا نبعت من ضمائرهم التى ابلاها الرياء والزيف وعاشت على الكذب والنفاق وتمرغت فى الوحل .

ارض السلطان المفقودة

ثمة سلطنتان متجاورتان يفصل بينهما برزخ ضيق يبلغ عدة كيلومترات • السلطنة الاولى صغيرة فقيرة قليلة الموارد ، اكثر أرضها صحراء رملية لاينبت فيها غير الشوك ، ان مسته قدم انسان ادمته كما تدمى الابرة اصبع الخياط ، لهـا سلطان ضعيف الشأن فاتر الهمه قد فقد كل أمل فى اصلاح سلطنته ورفع مقامها • اما السلطنة الثانية فكبيرة معمورة عامرة فيها اشجار وصناعات ومياه وثروات وارض تطلع التمر والنبات • مناخها رائق جميل وهواؤها عذب عليل مسرة للناظريـن والقادمين ، يتربع على عرشها سلطان فخور متكبر يختال ابهة وعظمة ، تحفـل خزائنه بالذهب والمال وتكتظ حجراته بالدمقس والارجوان ، ينفق عن سعة ويحيا فى بذخ واسراف ، الا انه مريض فى ساقيه ، توجعه ساقاه عن علة لم يفلح طبيب فى مداواتها ، وطالما سهر الليل يتأوه ويئن ومن حوله خدم واتباع يدلكون ساقيه بالمراهم ويرشون عليهما العطور ويفركونهما بالادهان فان خف عنهما الالم ساعة من الزمن عاد مرة أخرى جياشا قارصا فيتضاغى السلطان ويزم شفتيه الا أن التأوهات تنطلق خافتة موهنة •

وحدث ان رغب السلطان الكبير ان ينطلق فى سفرة ليجرب بعض الميـاه المعدنية فى أرض بعيدة تقع وراء البحر المتلاطم الامواج ، الزاخر بالاعاصـير والزوابع • اختار السلطان الكبير طريقه عبر سلطنة السلطان الصغير ، وما أن سمع هذا بالخبر السعيد حتى طار أبتهاجا وفرحا ، فاعد العدة اللائقة من المأكل والمشارب وفرش الارض بالسجاد النادر الثمين ونشر معالم الزينة وعلق القناديل واوقد آلاف الشموع وجند عددا ضخما من جواريه وغلمانه ليكونوا فى خدمة السلطان الكبير وبين يديه وهم فى ابهى زينة واجمل حال واروع مقال •

وعندما شرف موكبه جلس السلطانان فى بهو عظيم لاترى العين من أرضه

وجدرانه وسقوفه غير الديباج المزركش والقطيفة الحمراء ، وتهادت على الاكتاف المطارف والاوشحة من شتى الالوان والنقوش وتألقت المصابيح الوهاجة ترسل نورها السني فتجعل الليل نهارا واشد ضياء من النهار •

كانت علائم الداء جلية على سيماء السلطان الكبير بسبب وجع ساقيه المتورمتين فلم يبتسم الا خجلا ولم يأنس الا استحياءا ومجاملة ، وفجأة انبرى رجل قصير أفطس حسبه السلطان واحدا من اللاعبين المهرجين أو كناسا فى أصطبل الخيول• قال الرجل يخاطب السلطان الكبير ــ أن لدى دواء يشفيك ــ تعجب السلطانان من جرأة هذا الرجل وثقته بنفسه • سأله السلطان الكبير •

ــ كيف ذلك ؟ واى دواء تعنى ؟

وقـــال

ــ سأتيك به بعد دقائق •

أنطلق الرجل بعيدا ، توغل فى أراض شائكة تكاد تجاور البحر وأخذ يجمع منها شوكا عاديا لايتميز عن سواه باية ميزة ثم عاد الى مجلس الســلطان وقال ــ

ــ ساحرق هذا الشوك حتى يستحيل رمادا ساخنا ثم تضع بعض الرماد عـلى ساقيك فيتلاشى الالم مثلما يتلاشى الزيت اذا مسه الصابون •

فعل الرجل ذلك فى ساقى السلطان فتلاشى الالم واحس بالانتعاش والراحة وزايلته كآبته وانقباضه بل غدا يشعر انه اصغر عمرا وأعظم حيوية واخف وزنا وأرشق قامة وأجمل وجها وأعذب صوتا • فوهب الرجل حفنة من الذهب وأمره ان يكون طبيبه يوالى علاجه بهذا الرماد العجيب •

وعندما وجد السلطان الصغير ان شوك سلطنته ذو نفع للسلطان الكبير امــر بحمل عدة زوارق من هذا الشوك وارساله اليه ثم واصل السلطان سفرته فى عز وتكريم •

مضت عدة أشهر كان السلطان الكبير يستعين برماد الشوك لتخفيف الالــم

عن ساقيه فيشعر بالانتعاش والراحة ويقبل على تصريف شؤون رعيته بهمة وعزيمة ومزاج حسن • ولما نفد ما عنده من الشوك ارسل فى طلب المزيد من سلطنة جاره فوعده السلطان الصغير ان يبعث بالشوك فى وقت قريب • ومضى شهر وشهران ولم يبعث شيئاً •

فأشتد الألم بالسلطان الكبير واعتكف فى قصره يئن ويتوجع فتعطلت اعماله وتراكمت مشاغله فاستبد به الهم والقلق حتى انه أخذ بالهذيان ولم يعد يشتهي طعاما أو شرابا واضطر آخر الامر أن يبعث برئيس وزرائه يستطلع الخبر ويفهم حقيقة الامر ويقف على جلية الحال • ولما التقى الرجلان خاطب السلطان الصغير ضيفه بنبرة)صارمة حازمة ذلك انه لم يبعث بأى شوك • فتحير رئيس الوزراء من أصرار السلطان الصغير وحرصه على مادة رخيصة تافهة ، سأله ان يبيع له بأى ثمن، فرفض السلطان الصغير • ولما سأله عن السبب • قال السلطان الصغير ••• ان شاء السلطان الكبير أن يدخل فى مساومة دخلت معه ، وهى ان يتنازل عن سلطنته لى ولرعيتى وان يأخذ سلطنتى مع رعيته • ومعنى هذا ان يتبادل السلطانان سلطنتيهما وان تتبادل الرعيتان ارضهما • كانت مساومة غريبة ومثيرة ومجحفة ، الا أن السلطان الكبير تحت ضغط ساقيه الموجعتين رضخ للامر واعلن قبوله • الا انه مهد لهذا القبول بدعاية واسعة مفادها ان السلطان الكبير الواهب الخير والبركة لرعيته قد غدت حياته فى خطر وليس من سبيل الا تقديم التضحية من أجل أن يعيش وليس بعسير على رعية همامة مخلصة ان تخلق من الصحارى جنانا ومن اليابس أخضر ومن البلقع بستانا وقد اعقب ذلك صدور بيانات ونداءات تدعو الناس للتضحية بكل غال ونفيس فى سبيل ادامة حياة السلطان وقد مثل بين يديه كبار العلماء والرؤساء واولو الشأن والخطر يعرضون عليه اموالهم واولادهم وما يملكون فى سبيل كسب لقضية الكبرى ، قضية حياة السلطان وليس ثمة قضية أعظم منها شأنا واجل خطرا •

من الطبيعى فى كل عهد وزمان وسائل للدعاية ومن شأن هذه الدعاية صب

أفكار الناس وعقائدهم فى قوالب محددة وتزييف الواقع وطمس معالم الحقائق واظهار الاحمر باللون الابيض • وكذلك كان وما يزال يكون •

اما السلطان الصغير فقد ازدهى تيها وفخرا ، خطب فى رعيته مبتسما مبتهجا خالعا على نفسه الحكمة وقوة البأس والدهاء واللوذعية اذ امتلك بلادا معمورة خصبة تزخر بالعسل والبصل والبر والتبر والماء الزلال •

خرجت رعيته تحييه وتهلل له وتدعو له بطول العمر ودوام المجد والسؤدد وغدا زعيما وقائدا وفاتحا •

حل السلطانان كل فى مكان الآخر والتقى موكباهما فى عرض البرزخ محمولين على محفتين كبيرتين • كان السلطان الصغير منتفخ الاوداج يبتسم فى بلاهة بينما كان السلطان الكبير دامع العينين كاسف البال مهموما على ملكه المضاع ، الا أن الاستحواذ على الشوك العجيب الذى يهدىء وجع ساقيه خفف عليه بعض المصيبة •

ومع ذلك فقد حيا احدهما الاخر وقوفا •

تكدس شعب السلطنة الكبيرة فى بيوت ضيقة يهب عليها الغبار ويتطاير فى جنباتها الذباب فيها القليل جدا من المدارس والمستشفيات لاتكفى تلاميذهم ومرضاهم ، فقعد الكثير منهم فى بيوتهم من غ ير علم ومن غير علاج لامراضهم ، الا أن الموكول اليهم أمور الدعاية دعوا الناس الى التضحية بأوقاتهم وراحتهم من أجل أن يبنوا ويشيدوا مدارس ومستشفيات ، وكان ذلك فوق طاقتهم واحتمالهم ولكن فى سبيل السلطان الموجع الساقين ، كل صعوبة تهون وكل بلية تخف وتنقشع ، ومن يتقاعس ويتذمر مصيره الموت والعذاب •

أزقة السلطنة الصغيرة خربة ومطاعمها قذرة ومرافقها مزابل وحوانيتها ملأى بالجرذان والعناكب فلا يدرى الناس كيف ينامون ويأكلون ويشربون ويأنسون ويطربون • انطرح بعضهم مرضى ورغب الآخرون ان يهاجروا الى بلدة نائية وقعد الباقون مهمومين حيارى ترين الكآبة على محياهم •

أما سلطانهم الكبير فقد استوى على عرشه الملكي الفخم في قصر منيف عامر ، فالسلاطين كافة صغارهم وكبارهم يحيون في قصور فخمة لا يكاد احدها يتميز عن سواه في الابهة والجمال أنما الفروق تبدأ في الرعية وبين الناس •لقد اتوا بالشوك وكدسوه في مداخل قصره يحرقونه في الليل والنهار ويضعون رماده على ساقيه الموجعتين فيغفو مستريحا •

أما السلطان الصغير فقد بهره المال والجاه فانغمس في الملذات والترف واباح لرعيته الخمر والقمار من غير رقيب ولا حسيب وكأنهم عصابة سطوا على مال لاينفد وملك لا يزول من غير ان يقدحوا ذهنا ويرهقوا يدا ويكلفوا نفسا •

وعندما دنت نهاية السلطان الكبير وشعر انه مائت ، أخذ ضميره يعذبه ، لقد هلك الكثير من رعيته وهاجر آخرون وهام المرضى والاطفال على وجوههم فبلغ انينهم مسامع السلطان في الليل البهيم وهو منطرح على فراشه الوثير يعاني سكرات الموت • لقد تورمت ساقاه ولكنه لا يشعر بالألم فقد فقدتا الحياة ومات ما في عروقهما من دم لقد ضحى من أجلهما بسلطنة زاهرة وبرعية مخلصة دؤوبة نشيطة فقرر ان يبترهما بضربة فأس •

أعلن للرعية انه يرغب في وداعهم فقد دنت نهايته • حملوه الى شرفة قصره فتجمع عدد وفير من رعيته قال يخطب فيهم ـ لقد ظلمتكم ايها الناس وجنيت عليكم واورثتكم العذاب والاذى في سبيل شيء تافه ، في سبيل آن اعيش • ان للسلاطين نزوات واهواء وان لهم جنونهم وأنانيتهم المفرطة • اوصيكم الا تثقوا بسلطان من بعدي • ثوروا على السلطان الظالم واقلعوا ابواب قصره واحرقوه • انني أبتر ساقي ـ ضرب السلطان ساقيه بالفأس فتهشمتا في الحال وفارقنا بدنه من غير أن يشعر بألم ومن غير أن تسيل قطرة دم • لقد سمعه الناس يقول في ضعف ووهن ـ عودوا الى سلطتكم استعيدوا حقكم المسلوب أصلحوا الخطأ الذي أرتكبته •

عندما مات السلطان الكبير أخذ الناس اهبتهم لحرب يستعيدون بها سلطتهم المفقودة وقد أستعادوها فعلا ولم يعودوا يصدقون سلطانا الا سلطان انفسهم •

شعراء السلطان

من خصائص السلطان العظيم ادام الله حكمه واسبغ الخير عليه وعلى عباده المخلصين ، انه مولع بالشعر والادب والخطابة ، هذه خصيصة نادرة ، اذ أن في كل جملة عقود من الزمان يظهر سلطان متأدب يهوى رواية الأشعار وحكاية الاخبار ويجزل العطاء لمن يتفوق ويتألق • وما أن جاء مثل هذه السلطان الى قوم من الاقوام حتى هللوا وكبروا وأستعظموا نعمة الله أن أتاهم بسلطان يفهم ويعقل •

كان لهذا السلطان رأي غريب في الشعر فقد حبب شعراء السلطنة والتحبيب بمثابة الامر ان يكتبوا شعرا يصعب فهمه ويعسر تفسيره وتستعجم معانيــــه حتى لايكاد يفهم او لايفهم على الاطلاق ولكي يغري الشعراء بكتابة شعر كهذا اخـــذ يجزل العطاء ويبالغ في الكرم ويعقد الندوات والمناسبات لالقاء شعر غريب مستغلق لايفهمه اعظم المتعلمين وامهر المفسرين •

أخذت اقلام الشعراء تتبارى وتتسابق في التحليق الى عوالم غامضة مضببة سديمية لامتناهية حيث يذوب الليل في النهار والبحر في الجبل والســـماء بالارض والمرئي في غير المرئي والكائن باللاكائن والحاضر بالغائب والصـــحراء بالجنان والعشيقة بالزوجة والزهرة بالدم •

كتب يوما شاعر من غير هؤلاء قصيدة ظريفة جعل عنوانها ـ أدبت أبني بالعصا لانه تبول في فراشه ـ جاء الى السلطان وتلا عليه قصيدته فضحك السلطان مـــن سذاجة الشاعر وغفلته وحماقته اذ يجعل من قضية ابنه التافهة العابرة موضوعا لقصيدة لاشك انه ابن مريض معلول احمق لا يتناول غذاءا كافيا وقد عششت في عقلـــه الهواجس والمخاوف •

امر السلطان ان يؤدب هذا الشاعر بالعصا وأن يقلع عن نظم الشعر حـــتى نهاية عمره وأن يحجز عليه ويلازم بيته ويؤخذ منه الحبر والورق والقلم •

وذات يوم والمصادفات كثيرة فى الحياة حدث أن ألتقى الشاعر المحجوز المؤدب أبنه بالعصا وهو في أرذل حال من المقام والمعاش مع شاعر مرفه محظوظ من اولئك الاثيرين المفضلين لدى السلطان قد سما وتجلى في الشعر ـ العميائى ـ الجديد الذي استنه السلطان وحبه للشعراء • التمس الشاعر المنكوب الشاعر المحظوظ ان يدله على سبيل يقوده الى النجاح وان يصحح قصيدته ويجعلها قريبة الى ذوق السلطان •

أطرق الشاعر ثم رفع رأسه باعتزاز قائلا ـ يكون العنوان أدبت السماء الماطرة بالقوس قزح ـ ثم استرسل يفسر ويوضح معنى هذا العنوان الجديد ـ بدل ان تقول يبول ابني تقول تمطر السماء ، فى كلا الحالين يتدفق الماء • هذا يتدفق في الفراش وذاك يتدفق على الارض وانت تحب ابنك مثلما تحب السماء فالشيئان يملكان خصيصة واحدة متشابهة ، والفراش منبسط وكذا لك الارض فهى منبسطة وقوس قزح هو عصا كبيرة ممدودة فى عرض السماء كتلك العصا التي تؤدب بها ابنك •

تعجب شاعرنا من هذه التخريجات والتأويلات والتفسيرات التى يشكل حلها ويغلق فهمها حتى على انبه النابهين ولاضرورة لها ولا معنى ، ومن المشقة بمكان ان يصطنعها شاعر يخدم الفكر ويخدم الناس •

مضت قافلة الشعر على النحو الذى اشتهاه السلطان ، فلم تعد للكلمات مدلولاتها ولم تعد للمعاني معانيها المستقرة فيها ، وقد أثيرت بين هؤلاء الشعراء مجادلات في غاية الغرابة منها ، هل بالامكان ان يتزوج الشعراء ملائكة كيما يساعدونهم في التحليق الى عوالم اخرى غير الارض البائسة الحزينة التى وضعتهم عليها امهاتهم جورا وظلما وسوء تقدير •

مرت الايام فاذا بوادر مجاعة تلوح فى سلطنة السلطان • شحت الامطار ويبست المزارع وتضاءلت منتوجات الحنطة وارتفع سعر الخبز ثم حلت نكبة أخرى ، فالنكبات لا تأتى الا مجتمعة • وفد على الناس مرض الطاعون فأخذ

يحصد الارواح في تريث وتمهل فتساقط الجوعى والمرضى على أرصفة الازقة والدروب يئنون ويبكون ، فيمر بهم الشعراء رافعين أنظارهم الى السماء ، حالمين بأمكانية أن يتزوج الشاعر ملاكا فيطوف معه السموات السبع فيستجلي غوامض الكون ويعايش النجوم في افلاكها ومداراتها ويكون في جوار فينوس او في احضانها لتلهمه الشعر • غير ابهين حتى بقدر عيني النملة بما يحوطهم من بؤس ومسكنة وآلام وفواجع • ولما أشتد عويل المعولين وصراخ الصارخين وعذابات المعذبين وصار الامر يزعجهم وينغص راحتهم ويورثهم الكآبة والضيق ويفسد مشاربهم ومأكلهم ، التجأوا الى السلطان ليتدبر امرهم ويتدارك مصيبتهم قبل أن تجف قرائحهم وتصوح مواهبهم وتتيبس حلوقهم ويفقدوا كل قدرة على نظم الشعر فتحل بالسلطنة كارثة لم تحل مثلها على قوم من الاقوام ربما هي اكثر فداحة من خراب سد مأرب او الطوفان •

أقترح عليهم السلطان ان يأووا الى جبل يعصمهم من الكارثة ، وهو جبل سامق عظيم يقع في أقصى السلطنة لا يبلغه راكب ولا راجل ولا يدركه طرف أنسان انما هو معتكف جميل مورق تحف به الوديان الخضراء وتطير في سمائه اجمل الطيور المغردة وتهب عليه اعذب النسمات •

شدوا اليه الرحال هانئين منعمين تلهج افواههم بالشكر والامتنان للسلطان المدبر الكريم الذي شملهم بعطفه ورعاهم برعايته السابغة الواسعة • شقوا طريقهم في معارج الجبل العظيم حتى نزلوا آمنين عند قمته العصماء ، وقرروا أن يعتاشوا على الثمار والفواكه التي تحفل بها اشجار الجبل وأن يأكلوا لحوم الغزال والطيور ولا يذوقون قط أي طعام أو شراب يصل اليهم من المدينة المنكوبة الباكية •

تلفت الجياع والمرضى يبحثون عن شاعر يكتب قصيدة استرحام للسلطان كي يمنحهم ملاذا وطعاما وشفاءا ، وأن يجعل من قصوره واملاكه مستشفيات وملاجيء وأن يخصص من امواله شيئاً لشراء الطعام والدواء ، وان يرحم ويعطف بما هو جدير بكل سلطان •

ليس ثمة شاعر بينهم يمكن أن يكتب • جميعهم متصمون بالجبل • ولكن هل يمكن أن تخلو سلطنة من شاعر يتحسس بنكبة الناس •

جاءوا الى الشاعر المعزول الذي ادب أبنه بالعصا وسألوه ان يقودهم الـى السلطان ليسترحمه بقصيدة ،فأشار عليهم اولا أن يتوجهوا الى الشعراء ويؤدبوهم بالعصى فامتثلوا أمره وتسلحوا بالعصى الغليظة وسلكوا شعاب الجبل ومساربه حتى بلغوا موطن الشعراء فأدبوهم بالعصى بضربات موجعة هي خير مما أدبتهم الحياة وقد شعروا ان للآلم معنى وللعصى ثقلا ووظيفة • ومن ثم عادوا الى السلطان يهزون عرشه من غير استرحام ومسكنة ومن غير شفاعة شاعر •

تكية السلطان

على ما يذكر الرواة ، أنه كان سلطانا بليغا متفقها عالماً بدقائق اللغة دارساً للبيان محباً للفذلكة فى الكلمات والشقشقة فى اللسان والتلاعب بالمحاسن والاضداد وأيراد المرادفات والمخالفات والمناظرات والمعاكسات ، وكان شعاره مع أهـــل اللغة ـ أن أحسنت مدح الشيء فأحسن قدحه بالمقدار نفسه حتى يتساوى الامران حجة وقوة وبلاغة ـ وكان يجزل العطاء ويبسط الكف لمن احسن واجاد ، وجاء بالغريب المستغلق والنادر المستلطف بما لم يسبقه اليه سابق ولم يخطر لغيره على بـــال ٠

ومن أجل أن ينمى هذه المواهب فى الناس فقد افتتح تكية فخمة أنيقة الرياش رفيعة العماد باهرة الحسن والتنسيق تحفل بصنوف الكتب فى اللغة والفقه والمنطق والفلسفة وما الى ذلك من علوم الكلام ٠ وكانت بطبيعة الحال مأثرة لامعة من مآثر السلطان مدحها الخطباء ووصفوها بانها محجة للعلم ودار للفقه ومنتدى للفكر تحفظ اللغة من الضياع والفساد وتقوم اللسان من البذاءة والرطانة وتعين اهل المعرفة كى ينطقوا ويتفصحوا ويبدعوا ويبينوا ، ولكنها بدت فى اعين الفاحصين العارفين والملمين باحابيل السلطان أنها لا تعدوا أن تكون مجمعا للثرثرة ومحفلا ميتا يتعامل بالكلمة من أجل الكلمة لامن أجل معناها ومرماها ، وما هم السلطان الا تصـــريف طاقات الناس فى مسارب ومواليج لا تؤذيه ولا تزعجه ، واستقطاب ما يمكن استقطابه من المطبلين والمزمرين لحكمه وسلطانه ٠

كانت هذه التكية تعلم الطلاب القدح والمدح فى وقت واحد وللشيء الواحد ، فمن سجلات هذه التكية ومحفوظاتها ورسائل طلابها الذين دخلوا أمتحاناتهـــا وتخرجوا وتبوءوا المناصب او طردوا أحياناً من جراء جرأتهم وأمتعاضهم وسخطهم على جمودها ونفاقها ٠ ما يلى :

سئل أحد طلابها ان يمدح الشمس وان يقدحها فكتب يقول مادحا :

(هى الدفء فى زمهرير الشتاء ، تحيي الشجر وتطلع التمر ، وتفرش الارض بالاعشاب اليانعة وتغطى الغبراء الكالحة ، وتذهب بالعلل وتشفى الورم وتهب الدم الى الوجوه وتذهب الصفرة من الجفون وتبدد الثلج وتقوى عزائم الاطفال على الجرى والسباق ، وتقتل العفونة وتطرد الخفافيش والبوم وتطلق حناجر الطير بالتغريد وتسمّن الاغنام والابقار وتملأ الفضاء باسراب النحل والفراشات) .

وكتب يقول قادحا :

(لهيب حارق لاهب تسخن الرأس وتصدعه وتأتى بالحمى الى الابدان وتفسد خلوة العشاق وتفضح نظرات المستهام المشتاق وتكشف العيوب والندوب فى وجه المتصابية العجوز وتذهب بخيال الشاعر واحلام الساهر وتقتل الطير عطشا وتفسخ الجيف حتى لايكاد الانف يحتمل وطأتها ، وهى تنتزع من الارض نداوتها وماءها وتيبس ترابها حتى تجعله غباراً يرمد العيون ويخنق الصدور) .

وكتب طالب آخر يمدح المشنقة ويقدحها قال مادحا :

(ارجوحة الابطال ومسلة الاحرار ومرقاة الخالدين العظماء وهى الشهادة والجلجلة والمسيح ، وهى النور الذى تستضىء به الاجيال فى نضالها والكتاب الذى تحفظ فيه البطولات والسجل الذى تسطر فيه الامجاد ، وهى القول الفصل بين العبودية والانطلاق وبين الصدق والاختلاق وبين الحق والاعتباط ، وفى ظلالها تزأر الاسود وتزحف الجموع وتدك العروش وتتهاوى التيجان) .

وكتب قادحا :

(زاهقة انفاس اللصوص وقطاع الطرق مطهرة الارض من الحثالات والاوباش كانسة الاوساخ والنفايات . فى طرف حبلها ينتهى استهتار المستهترين وعبث العابثين والمسترخصين لدماء الأبرياء والطيبين واعداء الراحة والدين خشبة رخيصة وحبل رخيص ليس للمجرمين عنها محيص) .

وسئل أحد طلاب هذه التكية هل يصح لطالب العلم ان يشتغل فى السياسة ام لايشتغل ٠

كتب يؤيد الاشتغال بالسياسة ٠

(أن طالب العلم هو فلذة من هذه الملة ، ينفعل بأنفعالاتها وينشغل بمشاغلها ويتحسس باحاسيسها ، فلا يجوز لراكب السفينة الا تهمه سلامتها وامنها ولا يجوز لرفيق القافلة ان يغفل عن مسالك دليلها وقائدها ٠ ففى البحر هياج وعاصفة وفى البر رياح وزوبعة ، فهو مشارك للاحداث عارف بخيرها وشرها وبواطنها وخوافيها فلا تفوته شاردة ولا تستغفله واردة، يعيش فى خضمها ومعمعانها ، يثور على مفسديها ويهلل لمصلحيها ، فهو العرق النابض والبصر الحاذق واليد الضاربة)٠

وكتب يعارض الاشتغال بالسياسة ٠

(للسياسة أهلها واصحابها ، اولئك الذين أوتوا قدرا عظيما من اللوذعية والدهاء والفطنة ، لايرقى الى مستواهم العامة والطغام ٠ هم العارفون بمعائش الناس متبعو الصالح مجتنبو الطالح فلا ينبغى ان يقترب منها جاهل مأفون ومدع مخبول او صبى مغرور فيسعى الى الوقيعة والهلاك فيشق صف الامة ويبذر بذور الفتنة ٠ لطالب العلم كتابه المفضل وقرطاسه الاثير يعكف عليهما فى الليل والنهار لايصرفه عنهما صارف ولا يشغله عنهما شاغل ، فأن اغواه غاو وحرضه محرض فليحذر ويتبصر فالفتنة وشيكة الوقوع والفساد ماثل والتخريب اسهل من البناء وثمة من هم أعرف وأدرى واحكم واعلى ، ولكل صنعة ممارسوها وحاذقوها ومن تدخل فيما لايعنيه لقى ما لايرضيه) ٠

من المحرمات الكبرى فى هذه التكية ان يشترك طالبان فى موضوع واحد ، كأن يمدحه احدهما ويقدحه الآخر فذاك من افدح المخالفات التى تجر الى الطرد والابعاد والسجن والتعذيب ، فالسلطان يرغب أن تكون للكلمة حرمتها اللغوية القاموسية ، ومكانها فى الكتاب الجامد الجليل ، ويرغب ان تكون التكية اسمى من المهاترات والمناجزات والمناظرات التى تؤدى الى تبنى المواقف والتحزب لقضية

دون أخرى وهذا فى زعمه مفتاح الشقاق فى الامة ومصدر البلاء فى الرعية !لا انه بعد حين كتب طالب عن موضوع التكية • هل هى تخدم الفكر ام تفسده ؟ فأكد انها تفسد الفكر ولا تخدمه ، وليس ثمة جدوى من بقائها على هذا الشكل ، ولم يكتب شيئاً ذا بال فى مدحها ، وقد طرد هذا الطالب لانه يخرب البيت الذى يؤويه ويقطع الثدى الذى يرضعه •

وبعد سنوات كتب طالب آخر هل الافضل ان يحكم سلطان مطلق ام سلطان مقيد بنظام • فأكد أن الافضل أن يحكم سلطان مقيد بنظام تتفق عليه الرعية وتجد فيه انعكاسا لمصالحها وتطلعاتها •

ولم يكتب شيئاً ذا بال فى مدح السلطان المطلق • وقد سجن هذا الطالب وضاعت آثاره من فوق الارض •

وعندما تألبت القوى على حكم السلطان واصبح للناس صوت جهير فى ارجاء السلطنة كتب طالب آخر • هل يجوز ان يحتكر السلطان موارد السلطنة وينفقها كما يشاء على ملاهيه ومعارفه واهله وعشيرته ، أم ينفقها على نظام وحساب ومراقبة• فأكد أن صرف موارد السلطنة ينبغى أن يخضع لنظام وحساب وعدالة ومراقبة وخلاف ذلك هو تعسف وظلم وابتزاز واجحاف ، فلا ينبغى للسلطان ان يستغفل الرعية الكادحة فينهبها فى رزقها وحلالها •

وكتب طالب آخر يقارن بين الحكم الوراثى والحكم غير الوراثى •

كتب يؤيد الحكم الوراثى

(فى الحكم الوراثى تتعلق انظار الامة بعائلة كريمة عريقة تتوارث الحكمة والفطنة وتتداول المقاليد فى رصانة وكياسة ومعرفة ودراية • فتكون مؤئل المظلومين وملاذ البائسين والفيء الذى يستظله الفقراء المساكين ، فيطعمون من جوع ويأمنون من خوف •

فالابن يعلم ما الذى اختطه ابوه فينتهج نهجه ويترسم خطاه ويضيف عليه حسنات ومنافع فتتدرج الاصلاحات هادئة سلسة من غير ضجة وتكالب

وتزاحم ومغامرات المغامرين الذين لايهدفون الا الخراب والضياع وسفك الدماء وتضليل الناس بافانين الكلام المعسول والوعد المصقول تراه عن بعد خلباً لامعـــا مبشرا وتراه عن كثب بهرجا وتزاويق وسفاسف • لقد ظهرت أعظم الحضارات فى الممالك الوراثية وظهر كبار السلاطين الفاتحين من السلالات الحاكمة ، بينما لحق الدمار بالممالك التى حكمها المغامرون الذين فتحوا ابواب الفتنة وسوغوا المنازعات وأستمرأوا المشاحنات واسترخصوا الكرامات •

وكتب يؤيد الحكم غير الوراثى

هو حكم الشورى ، الذى يحطم اغلال العبودية ، ويرفع من شأن العامة ويجعل لهم كلمة مسموعة • فى عهد السلطان غير الوارث تنتعش الامال وتتحقق الاحلام وتزدهر البلاد ، فتنفض عن نفسها غبار الجمود والتحجر وتخرج مـــن مغاور التعفن والتفسخ ، وان أعظم الانتصارات فى تاريخ البشرية قادها الرجـــال الشجعان ذوو الطموحات والاقدام ، ففتحوا الامصار ، وقهروا الاشرار ورفعـوا الاعلام وقادوا الجموع الى الظفر والانتصار ، ومنهم الرسل والانبياء وأولو الرأي والاجتهاد !

وبعد حين تقرر عزل السلطان فى تكية السلطان • سارت جموع الطلبـــة تتبعها العامة تزمجر وتعربد تطالب بالحكم المقيد بنظام وبالحكم الشورى • ولم تجد السلطان نفعا دعاواه واباطيله وتكاياه • لقد عصفت العاصفة وازفت الازفـــة فكان الختل والخداع هباءاً فى هباء •

رقـم الايداع فى المكتبة الوطنية ببغداد ٥٥٨ لسنة ١٩٧٣

مطبعة السعدون ـ ٥ر٣ × ٢٠٠٠ ـ ١٥ / ٧ / ١٩٧٣



مطبعة السعدون

بغداد ـ شارع ابن نؤاس هاتف : ٨٦٣٣٢